AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00853 1372

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

02-B5801
19-11-02

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

DT
156.6
B25
1944

أعلام الإسلام

محمد أحمد المهدى

توفيق أحمد البكرى

« إن المؤرخ السودانى الذى سيكتب تاريخ بلاده يوماً ما ، يجب ألا ينسى أن يضع اسم « محمد احمد » فى طليعة أبطاله »

ونستن تشرشل

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

297.92
M27h

٩٢٣ ٢٦١
المهدي. ب

23711

مقدمة

هـذه عجالة مقتضبة لسيرة المهـدى Biography ، تصوفه وحركته وأعماله . أوجزتها إيجازاً مركّزا ، وأرجو أن نعود إليها مرة أخرى ، فنفصل ما أوجزنا ونسهب فيما اقتضبنا ، ونوفى هـذه الشخصية حقها سيرة أو تاريخاً ؟

القاهرة فى ٢٩ / ٧ / ١٩٤٤

المؤلف

١

٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ
١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ م

يُقبل النيل على مدينة دنقلة العُرْضى من الجنوب البعيد ، فتعترضه جزيرتا لَبَبْ وضِرَار ، فيندس بينهما ويفصلهما بخور صغير ، ثم يجتازهما راكضاً مندفعاً صوب الشمال البعيد . وتلمحهما عين الناظر فلا تقع فيهما على غير زرع نضير ودوح باسق وأكواخ صغيرة منتثرة هنا وهناك . فإذا دخلهما ألفى أهليهما عِترة عربية من قبيلة الأشراف امتازوا خلقاً بالكرم والنخوة والتمسك بتعاليم الدين .

توالت الأيام والليالى على جزيرة لبب فلما انبثق عليها فجر يوم ٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ ، أقبل أهلها على مواطنهم السيد عبد الله بن فحل يهنّئونه بمولوده الجديد « محمد احمد » ويتمنون له ولمولوده خير الحياة ويُسرها . والسيد عبد الله حسيب شريف المنبت تنتهى به فروع نسبه الى دوحة الحسن

السّبط ابن الامام علىّ بن أبى طالب ، أنجب على مر الأيام غير ابنه محمد احمد بنتاً وثلاثة ذكور منهم من سبقه الى الحياة ومنهم من جاء بعده .

ولبث السيد عبد الله يزاول فى موطنه زراعة أرضه وصناعة السفن مجداً صابراً قانعاً ، فلما أثقلته أعباء الحياة انتقل بأهله الى قرية « كَرَرَى » الواقعة شمال امدرمان بقليل مواصلاً وأبناءه صناعة السفن فابتسمت لهم الأيام بعد عبوس . وشبّ الطفل محمد احمد فى كنف رعاية وحدب من أهله ، يسرّح طرفه فى النيل المنحدر أمامه ، والجبل القائم وراءه ، والسهل المنبسط حوله . أأدرك فى تلك السن الناعمة ما أضمره له الغيب فى توافق وجوده بين تلك الجزيرة التى نبت فيها ، والجزيرة التى سيأوى إليها ، وبين هذا الجبل القائم وراءه ، والجبل الذى سيلجأ إليه فى عنفوان عمره ، وبين هذا السهل فى حاضره وهو يثب فيه لاهياً غريراً ، وبين مستقبل أيامه يوم تنقوض فى رحابه أعلام سيرفعها ودعوة سيجأر بها فتهوى صفوف بعد صفوف من أتباعه وأنصاره تتقدم مستقبلة الرصاص الحاصد وهى تنادى متحمسة مستبسلة مندفعة : الله أكبر ! الله أكبر ! فتَخُط للسودان صفحة جديدة فى تاريخ الوجود ؟ أتراه أدرك ذلك ؟ إنه لتوافق عجيب ! !

* * *

مات الأب بعد عام فى كَرَرَى فدفن بها ، وتفتته الأم بعد عام . وبلغ

محمد احمد السن التى يُدفع به فيها الى الخَلْوة أو المَسِيد (الكتّاب) لحفظ القرآن . فذهب الى خلوة الفقيه الهاشمى و بقى فيها سبع سنوات حفظ فيها القرآن وجوّده . وأراده شقيقاه أن يتعلم صناعة السفن فرغب فى غير ما رغبا فيه ، وكأنّه اختار لنفسه أو اختاره القدر الى صناعة الوعظ والارشاد والزهد والتقشف وتقويم المنكر وتعليم الناس ورفع عمد الاسلام والحرب فى سبيل الله .

وانتقل بعد ذلك الى خلوة الشيخ محمود الشنقيطى ، وذهب منها الى خلوة الشيخ الأمين الصُّوَيْلح بمسجد وَدْ عيسى بالجزيرة فبقى فيها قليلاً ، ثم مضى الى خلوة الشيخ الأمير ، وارتحل بعدها الى الفقيه العالم الشيخ محمد الخير فى الغُبُش تجاه بربر ، فطاب له المقام والاعتكاف على الدرس والتحصيل .

وبهرته دون أترابه فى الدرس أنوار التصوف فأقبل عليها ، وساورته نفسه فى سنى الشباب البُلْه بما تساور به قلوب الفتيان من رغاب الحياة وآمالها. أفيطلق مثلهم لنفسه العنان فى الأمانىّ والآمال ؟ أيمضى حياته وادعاً آملا كما يمضيها الآخرون ؟ كلا إنه لن يفعل ذلك ، انه ليروّض نفسه حتى يكبح جماحها ويقهرها على الصعب حتى يلين مراسها ، ويقتل فيها نوازع الصبوات فيذلها ويتغلب عليها ، ولن يستطيع ذلك كله إلا إذا قنت وصدف عن أعراض الدنيا الزّيّاف .

ان شيخه يتقاضى مرتبا من الحكومة تجريه عليه فى كل شهر ، وتمده ببعض العون من الحبوب كشأنها مع أمثاله من الفقهاء ومشايخ « الخلوات » الأخرى ، ويجود عليه الخيّرون بما تطيب به نفوسهم تشجيعاً للعلم فينفق ذلك كله على تلاميذه ومريديه الذين يقدمون عليه وعلى أمثاله الآخرين من شتى أنحاء البلاد . ولكن راتب الحكومة فى نظره مال يجمع بطريقة لا يرضاها الدين و بوسائل لا تتفق والعدل ، فهو مال حرام وآكله موغل فى الحرام مشترك فيه . انه إذن لن يمدّ يده الى هذا الطعام ولن يصيب منه شيئاً وسيستعين على قوته بما يرسله إليه ذووه .

ويرتقب محمد احمد فى غير تطلع ووجل رسالة أهله إليه ليدفع بها عن نفسه غائلة الحاجة ويرد عادية الجوع . وهو فى هذا الترقب مطمئن الى مورد المال الذى يرسلونه إليه ، فهو كدّ أيديهم وعصارة عرقهم ، وهو حلال مما يرضى الله ورسوله . فإذا ما جاءه المال ألفاه كثيراً يربو على حاجته والقليل منه كاف لسد عوزه . أفيدخر منه شيئاً للأيام المقبلة يستعين به على كَلَب الجوع ؟ ويصارع نفسه ويجالدها فيغلبها على أمرها ، ويأبى عليها أن يكون ضعيف الايمان بفيض ربه عليه فهو الرزاق ذو القوة المتين ، وهو الذى كفل القوت للدودة العمياء فى جوف الثرى ، فمعاذ رحمته أن يتركه يهلك جوعاً . انه إن ادخر شيئاً لغده فقد تكالب على الدنيا والتكالب عليها صدأ يطمس

نور القلب وماءه الألآق ، ولن يستطيع أن يَشِفّ ويرقّ فيسمو بقلبه وروحه الى معارج الملكوت الأعلى وهو بدين البطن مطمئن بما ادخر على مواجهة الأيام .

إنه ليكفيه سد الرمق ومُسكة الحوباء ، ففكر وقدر ، ثم صمم فقرر وتصدق بذلك المال ، واتخذ منذ ذلك اليوم الغابة سبيله فاحتطب منها وحمل أحطابه إلى السوق فباعها ، وتصدق ببعض ثمنها واقتات بالقليل الباقى . وأصبح ذلك حاله يغدو فى بكور الصباح إلى الغابة خميصا صائما يقطع أخشابه ويحملها على ظهره وغناؤه فى سيره وأثناء عمله تسبيحه وصلواته . فاذا هدّه الاعياء استراح قليلا ولسانه وقلبه لا يفتران عن ذكر الله . وترتفع الشمس قليلا قليلا إلى كبد السماء فيروح أدراجه ليدرس ويتأمل ، وتغيب الشمس فيفطر يتلمس الطعام بأطراف أنامله لمسا ، ثم يستأنف بعد العشى تهجده وصلاته والعبرات الدوافق تتحدر من عينيه ضراعة إلى الله وقربا .

فاذا أورقت الأشجار وجلّلها الندى وعسر عليه قطع أخشابها ذهب إلى النيل يصطاد أسماكه ، ولكنه لن يضع فى صنّارته طُعما فذلك تحايل وخداع لمخلوقات الله ، أليس من الاثم لديه أن يخدع مخلوقات ربه ؟ إنها إن تعلقت بصنّارته فذلك رزقه المقدور ، وإلّا فهو صابر على الجوع مروض نفسه على الخضوع والتقشف مرضاة لربه . وقد يمضى عليه يوم ويتلوه آخر والأسماك

لا تقترب من صنارته فيطويها صابرا متجملا . ويرتفع ماء النهر وترتحل الأسماك إلى لُجته فلا يبقى له من شيء سوى ما يلمحه من بقايا البصل فى جروف الزرع القائمة على شاطئ النيل ، ويَهمّ بأخذ شيء منها وتحاسبه نفسه أنه لا يحق لها أن تنال شيئا من مال غيره فيستأذن أصحابها فى أن يأخذ ما يقع عليه جزاء عمل يقوم به .

وهو فى كل هذا وديع النفس كريم الخلال حيي يكاد يتذاوب استحياء . يخف إلى خدمة أستاذه ولداته قريرا مختارا ، فأحبه أستاذه وقربه إليه ، وأحبه زملاؤه وتعلقوا به . وأجهده الدرس والكد ، وخدّد الصيام والقيام لحمه فضمر ونحل ، وساء له أترابه أن ينال شيئا مما ينالونه عند أستاذهم فاعتذر وأبى ، وألحوا وألحفوا فأفهمهم أنه لن يأكل من راتب الحكومة الحرام . وأسرها مكير إلى أستاذه فكبر عليه الأمر وكاشفه ما سمعه عنه فصدقه القول ، وتناقشا وتجادلا فى عزلة واقتنع أستاذه فقبله فيما بين عينيه وضمه إليه إكبارا وإجلالا . قال « يا بنى !! إننى ورثت عن آبائى هذه الساقية وتلك الأرض والجارية والعبد . وإنى لأقتات وأهلى منها ، وإنك لتوليني فضلا وأى فضل لو أنك شاركتنى القليل مما لدىّ . فأطرق محمد أحمد اطراقه المتأنّى ، وألح أستاذه وعاود الإلحاح فقبل بعد لأْى على أن يؤدى عِوض ذلك عملا يساعد به الجارية والعبد فى حرث الأرض وزرعها .

هكذا كان أمره ولمّا يبلغ العشرين . أصاب فى تلك الفترة أكثر مما أصابه زملاؤه علما وتثقيفا ، وواصل دأبه يروض نفسه ويكبحها ، وكلما نازعته الرغبات قهرها على المر وزجرها بالتقشف والإذلال . إنه لن يهدأ له بال حتى يتسيطر عليها ويومئذ ينال شربة من منهل القوم ، وتنكشف له أنوار الملأ الأعلى فيصل ويشاهد . تلك بغيته وانه لواصل إليها .

عاد الفتى محمد احمد إلى الخرطوم للقيا أهله بعد طول غياب ، ثم ذهب إلى جزيرة « أبا » حيث أقام شقيقاه وأهله الأقربون يزاولون صناعة السفن والزراعة . وسحرته الجزيرة بدوحها ومائها وهدوئها فوجد فيها العزلة المواتية للدرس والتأمل العميق ومواصلة الانكباب على كتب التصوف والوقوف على أسرار الزهد والزاهدين . إنها غايته الكبرى وأمله المنشود ، وانه ليقضى الساعات الطويلة فى رياضته الروحية فلا تزال روحه وجسمه بحاجة إلى الإذلال والقهر . أيستطيع أن يكبحهما ويملك زمامهما فيتلاشيا فى النفحات الإلهية شذى رفرافا نقيا من أكدار الحياة وأوشاب الرغبات ؟ إنه دوما صائم قائم نزر الكلام نزر الطعام ، مطرق فى تأمل وتفكير . إذا وسعه الوقت أقبل على كتبه ، وإذا امتد به الفراغ حرث الأرض وقطع الأخشاب فلا يزال يعاوده الحنين إلى الاحتطاب وقهر النفس كما كان يفعل فى الغبش ، انه صباه القريب الجميل .

أدرك محمد أحمد فى تلك السن المبكرة من العلوم ما لم يدركه أحد من لداته ، فقد حفظ القرآن وجوده ، ولم يفته النحو والصرف والفقه والتفسير والتصوف . وأولع فيما أولع به « بالأدب والعلوم العقلية كلها فدرس الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق ، وقيل إنه درس كتاب « الشمس البازغة » أكثر من عشرين مرة . وأقبل على التفسير فقرأ فيه قدرا كبيرا ، ووجد مكتوبا بخطه على ظهر نسخة من كتاب تفسير « الجلالين » ما يفهم منه أنه قرأه أكثر من سبع وأربعين مرة على مشايخ عديدين » .

عرف الغزالى ، وابن رشد ، وابن سينا ، وغيرهم من فلاسفة المسلمين ، واحتقب معه كتاب « إحياء علوم الدين » يعاود النظر والتأمل فيه متخذه نبراسه وهديه . إن محمد احمد كما قال عنه الشيخ الأمين الضرير شيخ علماء السودان قبل الدعوة المهدية « إذا حادثته فى العلوم العقلية تسمع من أساليبه الوجيزة والمفيدة ما يدعوك إلى نظمه فى عقد من اشتهروا بالبراعة فى هذا الفن . وقل على ذلك من خصاله ومناقبه وخبرته بأساليب التعليم حتى يخيل للمرء أنه يقدر على تفهيم من لا يفهم » .

إنه إذن ليس بحاجة إلى التنقل فى طلب العلم ولكنه بحاجة إلى التنقل فى طلب التصوف والزهد ، وأخذ الطريق من كبار رجال الطريق . فصيامه وقيامه وزهده وتجرده من علائق الدنيا وانقطاعه للعبادة لم تصل به بعد إلى

أول طريق السالكين . وأين هو من طريق الجنيد والبسطامى وابن أدهم والخواص وغيرهم . إنه لطريق طويل وعر والمزار بعيد .

جاوز محمد احمد يومئذ العشرين بقليل فنضر شبابه واستوى فارعا رشيقا عريض الوجه أسمر اللون أدعج العينين واسعهما ، أسيل الخدين مُشَلَّخَهما (مشرطهما على عادة أهل السودان) على خده الأيمن خال ، مفلّج الأسنان جميلهما ، بَسّاما فى استحياء وبشر .

* * *

رغب يومئذ أن يتم تصوفه وأن ينضم إلى إحدى الطرق الصوفية العديدة المنتشرة فى البلاد ، فقلّبها واحدة واحدة فلم ترق له سوى الطريقة السَّمّانية . ألم يذهب مؤسسها فى السودان « السيد الشيخ أحمد الطيب بن البشير » إلى المدينة المنورة فى طلب العلم ملازما الولى الكبير الشيخ محمد السَّمان الصديق نزيل يثرب فعاد أدراجه فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى واستقر فى « أم مَرْحى » أو « جبل السلطان » قريبا من « الخرطوم » ينشر دعوته ويبشر بطريقته معلما مرشدا ؟ إنه إذن لذاهب إلى حفيده السيد الشيخ محمد شريف نور الدائم باشا نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، فآخذ على يديه الطريق منتظما فى عداد تلاميذه وحواريه . وسبقته شهرته إلى أستاذه فتقبله قبولا حسنا ومكث عنده منقطعا إلى العبادة والصلاة وزجر

النفس ورياضتها فترة غير قصيرة ، مقيما على خدمة أستاذه وملازمته . يخدمه فى حله ورحيله وفى غدوه ورواحه ، ويخدمه فى مجلسه وفى داره ، متوليا من العمل ما يقوم به الرقيق من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ ، مغاليا فى إرهاق جسمه و إذلال روحه وصهرها وزجرها . فإذا وقف للصلاة ابتدرته العبرات المنحدرات كشأنه فى الغُبش وجزيرة أبا وكشأنه دائما ، وإن جلس بين يدى شيخه نكّس رأسه حياء ولم يرفع طرفه إليه إلا إذا حادثه . إن شيخه ليذكر له كل ذلك ، حتى يوم تدابرا نهجا واختلفا رأيا ، ويوم بدأ دعوته فنبّه إليه رءوف باشا حاكم السودان العام فى قصيدته التى قال فيها :

لقد جاءنى فى عام « زَعَ[1] » لموضع
على « جبل السلطان[2] » فى شاطئ البحر
يروم الصراط المستقيم على يدى
فبايعته عهداً ، على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصاً
وقد لازم الأذكار فى السر والجهر
وأفرغ فى نهج المحامد جهده
فرقّيته جهلاً بعاقبة الأمر

---

(١) عام زع يوافق بالأبجدية عام ١٢٧٧ هـ

(٢) جبل السلطان أو أم مرحى مقر السيد محمد شريف نور الدائم باشا بالقرب من الخرطوم.

أقام لدينا خادما كل خدمة
تعز على أهل التواضع فى السير
كطحن ، وطبخ ، واحتطاب ، وغيره
ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام ، كم صلى ، وكم قام ، كم تلا
من الله لا زالت مدامعه تجرى
وكم بوضوء الليل ، كبّر للضحى
وكم ختم القرآن فى سُنّة الوِتْر
لذاك سُقى من منهل القوم شربة
بها كان محبوبا لدى الناس فى البر

فلما رآه شيخه على هذه الحال ، وأنه سالك طريق المريدين وناهج نهج الصالحين وأنه سُقى من منهل القوم ، مال إليه وأحبّه ونصّبه شيخا وأعطاه علماً وأجاز له « إعطاء العهود وتسليك الطريق » فرجع محمد احمد بعد ذلك إلى جزيرة أبا ، فأقام بها مسجدا وخلوة للتعليم والإرشاد وتسليك الطريق . ووفد عليه الأعراب من قبائل دغيم وكنانة وبنى سليم وغيرهم كثير من بدو غرب السودان « فكان يوالى حثهم على طلب العلوم ، ونبذ الأوراد ، وما ولع به الجهلاء من أبناء الطرق الصوفية . ويقال إنه كان يتولى تعليمهم

بنفسه حتى إنه علم الوفا مؤلفة من الأعراب الكتابة والقراءة » . فكان إذا انتهى من صلاة العصر أو العشاء جلس يحدث سامعيه وتلاميذه عن الزهد وترك مباهج الحياة الزائلة والسير على هدى السُّنّة والكتاب ، فصيحا بليغا مؤثرا يواتيه البيان والشرح والاسترسال ، لا تفارقه ابتسامته فتبدو فلجته الجميلة الفاتنة للأبصار .

وتناهى إلى الناس أمر هذا الولى الشاب أبى « فلجة » ، وتناقلوا صفات ورعه وزهده وعلمه وجوده وفصاحته ، فأقبلوا عليه يطلبون البركات من صاحب البركات ، ويشنّفون أسماعهم بفصاحته وغزير علمه ، ويقدمون له الهدايا الغالية الحسان ، فيفرقها بَدَداً ذات اليمين وذات الشمال على المعوزين وذوى الحاجات ، لا يبقى منها شيئا لنفسه أو لأهله .

وحفر له فى جزيرة أبا عند شاطئ النيل منذ قدومه الأول غاراً يأوى إليه آونة بعد أخرى ، وقد يمر عليه الأسبوع والأسبوع فى ظلمات ذلك الغار ووحشته لا يؤنسه فيه غير ذكر الله ، ساجدا قائما آناء الليل والنهار ، يواصل الصيام والرياضة الروحية القاسية ، فإذا خارت قواه ووهن جسمه خرج من غاره ليستجم ويلاقى تلاميذه وأحبابه ليعود إليه مرة أخرى .

ويعاوده الحنين إلى زيارة شيخه ، فيذهب إليه كعادته فى كل عام لتقديم واجب الطاعة والانقياد ، فيتقدم إليه ضارعا ذليلا إمعانا فى الخضوع

والإكبار، فيضع « الشُّعْبَة[١] » فى عنقه ، وفروة الضأن فى خاصرته ويحثو الرماد على رأسه كأنه العبد الآبق فى حالة ذله وانكساره ، ويقبل على شيخه يطلب منه الرضى والامداد . فيحل شيخه محمد شريف الشعبة من عنقه ، وفروة الضأن من صلبه ، ويزيل الرماد عن فوده ويدعو له بالخير والبركات . ويقيم لدى أستاذه فترة يتذاكرا فيها ويتسامرا ثم يعود الى جزيرته لعبادته ودروسه وصيامه وأذكاره وتلاميذه العديدين .

هكذا كان شأنه لم ينكر على أستاذه شيئاً ولم ينكر عليه أستاذه شيئاً . ولكنه حدث ما لم يمر بخلده ، حدث أن أستاذه دعا محبيه وتلاميذه إلى مشاركته فى فرح ختان أولاده ، وأقبل المريدون من كل صوب وأقبل معهم ولى جزيرة أبا الشاب . ان سراة السودانيين ليبالغون فى هذه المناسبة فتُنقر الدفوف وترقص الإماء والنساء ، وتولم الولائم ، ويواصل الأقارب والأحباب اللهو والحبور أياماً عديدة ، فيشربون ويمرحون . أفإن جاز هذا عرفاً للكافة أيجوز ذلك فى بيت الشيخ الورع وإمام الطريق المتصوّف ؟ إن الرقص والمجانة والشرب واللهو تنافى جميعها تعاليم الشريعة السمحاء ، فمحمد احمد

---

(١) الشعبة خشبة طويلة يتفرع أحد طرفيها على شكل رقم ٧ ويوضع فى عنق العبد الآبق أو المجرم ويربط طرفها المتفرع بخشبة أخرى ، وتوثق اليدان على امتداد الطرف الآخر .

لن يقبل السكوت على ذلك إذا لمحه فى أى بيت فكيف به فى بيت شيخه الشريف المحتد والقدوة التى يجب أن ترسم للآخرين أروع المُثُلات . إنه منكر والمنكرات فى البلاد كُثر متفشية ، وواجب الجهاد فى سبيل نصرة الدين ليدعوه الى مقاومة كل منكر والتنديد به مهما بلغ ومن أين جاء ، وهيهات لمثله القوى الإيمان أن يكون ضعيف الإيمان . ان اليوم له ما بعده .

ندّد محمد احمد بما رأى وطلب من مريديه وأحبابه فى الطريق الذين جاءوا معه ألا يشتركوا فيما اشترك فيه الآخرون وقال لهم : « ان الشريعة تمنع الرقص والغناء والشراب والمجون ، وليس فى وسع آدمى إجازتها ولو كان شيخ طريق إماما » . وتطرق ذلك القول الى أسماع شيخه ، فطلبه وكلمه ، وأغلظ فى القول وأقصاه عنه وعن شيعته وأتباعه ، فرجع ومن معه الى جزيرته حزنان أسِفا ، وآوى الى كهفه وطالت غيبته وطال صيامه وقيامه ، وخرج مطرقاً كئيباً . فكان يُرى منزوياً صامتاً يفكر فى عوالمه العليا التى سما إليها. لقد رأى فيها من الأنوار والأطياف وأدرك من المعانى والصور ، وأحس من المشاعر والنَّأَمَات ما لم تسبق له رؤيتها أو الحس بها أو إدراك كنهها . والطريق وعر والمزار بعيد .

* * *

أين يُيمم وجهه ؟ إن الشيخ القرشى وَدْ الزّين فى الجزيرة لا يقل منزلة

ومكانة فى الطريقة السمانية عن شيخه محمد شريف ، فقد أخذها رأساً عن الشيخ الطيب الكبير واشتهر بالتقوى والورع وله من الأتباع والمريدين خلق كثير . أيراسله ليجدد عليه البيعة والطريق ، أم أين يذهب ؟ وبينا هو فى حيرته تلك وفد عليه وافد الشيخ القرشى يدعوه إليه . ومن ذا الذى لا يسارع فى ضم محمد احمد الى عداد تلاميذه والصفوة من حواريه ! وبينا هو يهم بالرحيل الى الجزيرة أقبل عليه رسول أستاذه محمد شريف يدعوه إليه ليتصافيا بعد تلك الجفوة والنفور فاعتذر شاكراً ، ومضى نحو الشيخ القرشى ، وجدد لديه العهد والطريق وألفاه شيخاً طاعناً تقيًّا من الصالحين ، وتعلق به شيخه الجديد وتعلق هو بشيخه الجديد ، فأدناه وقرّبه وبالغ فى الثناء عليه والاجلال من قدره أمام تلاميذه وفى حضوره وغيبته .

عُرف محمد احمد فى الجزيرة ما بين النيلين ، وفى شرق السودان وغربه ، وفى شماله البعيد . أليس هو الولى الشاب الذى عارض أستاذه محمد شريف ؟ أليس هو الزاهد الذى يوزع ما يُهدى إليه ذات اليمين وذات الشمال على المعوزين ؟ فأينما سار وحلّ تهامس الناظرون إليه بأنه قطب الوقت وإمام الصالحين . فإذا ما أخذ طريقه تزاحم الناس على تحيته ولثم يده ، وإذا ما صلى وجلس جِلسته تلك فى جزيرة أبا عقب صلاة العصر والعشاء استمعوا الى وعظه وسحروا ببلاغته مأخوذين دهشين . انه ليحدث سامعيه عن تعاليم الإسلام ، وعن الآلام التى يعانونها ، وعن منكرات

العصر ، وعن الظلم والظالمين . ويحث المسلمين على التمسك بالدين ، والانصراف عن الدنيا ، والأخذ بالتواضع ، وزجر النفس والاشتغال بما يقرب من الحق عز وجل ، ويؤدى الى مشاهدته والقرب منه ، « وتقليل الطعام والكلام والمنام واعتزال الأنام والذكر المدام والفكر التمام » ففى ذلك كله صفاء النفس وانتفاء مساوئ الأخلاق وانجلاء الظلمات الدنيوية عن القلب وتجلّى الحق فيه .

انه ليواصل وعظه وحديثه فى كل مكان نزل فيه ، فلما رجع الى جزيرته انفلت الى غاره وبقى فيه فترة أطول من كل فترة سابقة ، صائما قائما مفكراً منطلقا فى عبادته وتأمله حتى لتكاد روحه التى بين جنبيه تحطم اسار المادة وتسبح فى عوالم الروح الكبرى وترتفع عن دنيا الناس الى دنيا الحق . ويظل هكذا شأنه تمثالاً لا حراك فيه ، فلا عين تومض ، ولا كف تتحرك ، ولكنه سبات وهمود عميق .

ألم يبلغ بالإرادة والرياضة حدا عظيما ؟ «لقد عنّت له خَلَسات من اطّلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه . ألم تكثر عليه هذه الغَوَاشى كلما أمعن فى الارتياض ؟ إنّه ليمعن فى ذلك حتى يغشاه فى غير ساعات الارتياض ، وحتى ليكاد يرى الحق فى كل شىء . ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوف مألوفاً ، والوميض شهاباً بيّناً ،

وتحصل له مُعارَفَةٌ مستقرة كأنها صحبة مستمرة ؟ وزاد الوضوح والانبلاج واللذة العظيمة » ، انها لما يهبها الله لمن يشاء من عباده الصالحين .

ألم تلح له في كثير من خلواته بنفسه في غاره المظلم الموحش طيوف وأشباح وهو في سكرة عبادته وتلاوة أسمائه ومتصاعد بخوره ؟ انها أطياف مخلوقات من عوالم أخرى .

ألم تتردد في أذنه حضوراً لا غيبة ، ويقظة لا مناماً أصوات رقيقة وهواتف حنونة ؟ ألم ير في غفواته ما لم يره مخلوق ؟ لقد وصل أو كاد بعد طول عناء . إنه اليوم غيره بالأمس ، لقد قطع الطريق ودنا المزار .

انه ليملأن هذا العالم عدلاً كما ملىء جوراً وليعيدنّ للشريعة سالف عهدها السّمح ، وللاسلام مشرق ماضيه الوضاء وليقوضنّ دعائم الاثم والفجور والكفر وليزيلنّ الخرافات والأوهام . إنه التصوف والزهد لقد وصلا به إلى سبُحات عليا وأنارا له بصيرته وبصره ، وأمدّاه بقوة هي قوة الحق ، وقوة الحق لن تقهر .

ألئن أذلّه أستاذه وأقصاه منبوذاً مدحوراً فما به بعد اليوم حاجة الى شيخ وأستاذ . شتّان بين اليوم والأمس ، وان الغد لغده ، والشأن لشأنه انها رسالة سينهض بها ، ودعوة سيدعو إليها ، ودين سيقيم دعائمه .

***

قُبض الشيخ القرشى فى أعقاب سنة ١٢٩٧ هـ — ١٨٨٠ م ، فخفّ محمد احمد إلى « المسلّمية » ليتقبل العزاء فى أستاذه ، فوجد أن شيخه فى احتضاره أوصى بأن يكون محمد احمد خليفته والقائم على شؤون الطريق بعده ، ووصية الشيخ القطب أمر متبوع وعهد مقطوع . فبايعه الأحباب فى الطريق وانضم إليهم جلّ ذرية الشيخ الطيب الكبير مؤسس الطريقة السمانية ، فأصبح الحوارى المقصى بالأمس ندّا ومنافسا لأستاذه القديم . ووفد الناس على أبى فلجة وصاحب العلامات و إمام الوقت فريقا بعد فريق . وتهامس أحباب الطريق بأن المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا منهم ، وأن القرشى قبل وفاته أومأ بذلك إلى محمد احمد . وتناقلت الألسنة هذا القول فانتشر انتشار همسة المذياع . أينقص محمد احمد شىء مما تهامسوا به ؟ إنه عالم ، وصالح ، وشريف النسب ، ينتمى إلى الحسن السبط ، وأنه أفرق الثنايا على خده الأيمن خال . أليست تلك بعض علائم صاحب الوقت وأشراط الإمام المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ؟

أخذ محمد احمد فى إقامة قبة عالية فوق ضريح أستاذه تخليدا لذكراه واعترافا بمكانته وفضله ، و إظهارا لإخلاصه ووفائه . وساهم مع العاملين فى البناء من أبناء الطريق ، فرفع الآجر وحمل التراب حتى سمقت القبة بعد شهر شامخة إلى عنان السماء بيضاء تتألق فى وهج الشمس الساطعة وتلوح عاطسة

للقادم من بعيد ، فيؤمها أحباب الطريق من كل مكان للزيارة والتبرك ، ورفع فروض الولاء والإخلاص لشيخ الطريق حتى بعد وفاته .

و بينا هو يعمل مع العاملين فى البناء قدم بدوى فارع القامة نحيلها لمس الجدرى أطراف وجهه ، غريب اللهجة والزى ، حديد البصر تومض عيناه بذكاء عظيم ، وتلمح فى أساريره قوة الإرادة والعزم وسعة الحيلة والدهاء ، هو عبد الله بن محمد وَدْ تور شَيْن من قبيلة التعائشة أو البقارة . أقبل من غرب السودان يستحث خطاه لأخذ الطريق من محمد احمد ، وفى أذنيه تتردد وصية أبيه الشيخ الصالح الذى طلب منه أن يذهب بعد وفاته إلى الولى القطب ساكن جزيرة أبا ليأخذ منه البيعة و يتوفر على خدمته والوقوف ببابه والتفانى فى نصرته والذود عنه بالروح والنفس ، فهو صاحب الوقت والإمام المنتظر .

فلما انتهى بناء القبة رجع محمد احمد إلى جزيرة أبا وحوله خلق كثير من أحبابه وتلاميذه ومريديه ، وفى طليعة الركب يسير عبد الله الحوارى الجديد يحمل علما نقشت عليه آيات من القرآن الكريم . وأخذت الوفود ترد عليه من دار فور وكردفان والبحر الأحمر ودنقلا والجزيرة لتحظى بنفحة من نفحات الولى الصالح . وعبد الله يزداد كل يوم من سيده حُظوة وقربا ، متفانيا فى خدمته والسهر على راحته و إظهار ولائه ومحبته . أتراه أسرّ له فى عزلة من الناس وصية أبيه ؟ أم لزم الصمت حتى يأزف اليوم الموعود ؟ ان

أباه وقد كان صالحا من أهـل الـكشف قد ذكر له فى الساعة التى لا ينطق فيها المُسَجّى المحتضر كذبا ومينا أنه سيقابل المهدى المنتظر ، وسيكون وزيره وخليفتـه .

اعتزم محمد احمد بعد أوبته من المسلمية أن يقوم برحـلة ثانية إلى غربى السودان ، يبثّ فيها طريقته ، ويلاقى فيها أحبابه وتلاميـذه ، ويوثق عرى المودة بينـه وبينهم ، ويستطلع أحوال البلاد ويقف على شئونها . فخرج فى ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ هـ — مارس ١٨٨١ م فى سياحته تلك ، ومن حوله الأحباب والتلاميذ فى زىّ الدراويش . الجبـة المرقعة ، والعصا الطويلة ، والسبحة والرَّكْوَة[1] ومنطقة السَّعَف (خوص النخيل) والطاقية المقرّنة . فتلقاهم النـاس أينما حلوا بالترحيب والإكبار ، واندفع أهـل القرى والبدو والحضر والجبـال يَتَنَسّمون بركات الولى الصـالح صاحب الـكرامات ، ويهمسون بأنه القطب والإمام المنتظر .

لقد طال الانتظار . وبلغ الضيق حـدا لا تتحمله النفوس . والهشيم المتراكم من غيظ وحقـد دفين لتشعله شرارة من زناد قادح . فماذا رأى محمد احمد فى سياحته ؟ وماذا عقد العزم عليه ؟ لقد حان الوقت ودقّت الساعة .

---

(١) الركوة : إبريق من الجلد غطاؤه على شـكل اسطوانة طولهـا حوالى عشرة سم من الآبنوس أو سن الفيل يستعمله السودانيون للوضوء

٢

الطبول تدق ، فيملأ دويها الشِّعاب والسهول والوديان . والأعلام ترفرف هَفَّافة مع النسائم ، وجموع الدراويش فى جُبهم البيضاء الزاهية بشتى الرُّقع الملونة تسارع الخطى مهرولة إلى الأمام ، وأصوات التهليل والتكبير وترديد الشهادتين يصم الآذان ويرتفع إلى عنان السماء . ومحمد احمد يتقدم أحبابه وتلاميذه فى الطريق ، وأمام هذا الجمع الحاشد المتدافع كأمواج البحر السادرة عبد الله التعايشى يحمل العلم المُرَقَّم بالآيات . لا يعيا الركب سيرا ، ولا يعيا تهليلا وتكبيرا . ويخرج أهل القرى والدساكر التى لم يرحل عنها أهلوها فرارا من بطش الجند ونجاة من قسوة الجباة لملاقاتهم والترحيب بهم ، والتبرك بلثم ولى الله الزاهد ساكن جزيرة أبا الذى قدم لزيارتهم ، يطلبون منه الدعوات الصالحات ، ويتطلعون إليه فى غدهم تطلعهم إلى بصيص الأمل فى دجاء الخطوب .

هكذا خرج محمد احمد لرحلته فى غرب السودان . مرّ بجبال النوبة ، واجتاز فيافى كردفان المترامية ، فعرفها مكانا مكانا ، واستقبله الناس هذه المرة

استقبالا أربى على استقبال زيارته الأولى حماسا وترحيبا ، بعد أن ترامى إليهم نبأ موقفه من أستاذه محمد شريف . وأصبح السودان كله آذانا مرهفة تتسمع إلى ما حدث فيزيد الناس الروايات ويمعنون فى الشرح والتأويل .

محمد احمد فى رحلته تلك وبوارج الأسطول البريطانى على وشك دك حصون الاسكندرية ودورها دكا ، فينزل الجنود البريطانيون أرض مصر ويلاقيهم العرابيون ، وتطفأ نيران الثورة فى شمال الوادى ليتأجج أوارها فى جنوبه ، ويحكم على الثوار بالموت ويستبدل الإعدام بالنفى وتحتل بريطانيا مصر وتتولى إدارة شئونها . فما الذى أثار ساكنى شطآن النيل الأدنى ؟ تمرد المصريون على حكامهم الأتراك المسيطرين على مناصب الدولة العليا ، وتعددت الأسباب فثاروا فى وجه الضرائب الفادحة ، والإدارة المختلة ، والتدخل الأجنبى ، ووقوفه فى وجه الحركة النيابية التى لم يستأثر بها أهل الشمال عن أهل الجنوب ، بل ذكروا فى حداثة عهودهم بذلك اللون من الحكم مواطنيهم فى الجنوب فأفسحوا لهم فى مجلس النواب عشرين مقعدا . ترى أيعيد التاريخ نفسه ؟ والتاريخ أبدا يعيد نفسه ، من يدرى !!

لم يكن السودان بأسعد حالا من مصر . فزمام الحكم فيه بأيدى السادة الأتراك من حملة الالقاب الفخمة العريضة الذين استأثروا فى الشمال بكل شىء ، واستأثروا فى الجنوب بكل شىء . وما شكا منه المصريون ارتفعت بالشكوى

منه ألسنة السودانيين . « إن أهل شمال النيل وجنوبه ، كما يقول ونستن تشرشل ، كانوا فى البلوى سواء . تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا ، وتطلع أهل المنبع إلى زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد احمد » .

عاد محمد احمد من رحلته فى الغرب بعد أن وثق أواصر التفاهم بينه وبين أقيال العشائر ونظار القبائل وأصحاب الشأن فى البلاد ، وضم إلى عداد تلاميذه فى الطريقة السمانية عشرات الألوف من المريدين المخلصين ، وعاهدوه على السمع والطاعة ، والتمسك بأوامر الدين ، والانتهاء عند نواهيه ، والاستعداد إلى نصرة الحق ، وإقامة سنن الشريعة ، والفناء فى ذات الله ، وحضّهم على « الذل والانكسار وقلة الطعام والشراب والصبر وزيارة السادات ، وأمرهم بالحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله ، وأن يعصموا أنفسهم من زلل الوقوع فى الحسد والكذب وترك الصلاة » .

فماذا شاهد محمد احمد فى هذه الرحلة من أحوال البلاد ؟ وماذا عقد العزم عليه ، ووطد النفس على القيام به بالغة ما بلغت التضحية والاستبسال ؟

أبصر محمد احمد إدارة سيئة يتولى دفتها الجهلاء والأفظاظ من الأتراك ، ويبيعها كبار الرؤساء منهم إلى الموسرين من السودانيين لتكون سبيلهم إلى ابتزاز الأموال وجمع الثروات وإرهاق الشعب . « ألم يكن ظاهرا للعيان أمر

هدية مدير كردفان التى حملها البرق إلى الحكمدارية فأمرت بالقبض على التجار الذين سألوها عزل المدير وإنفاذ إرادة الخديو القاضية بتولية أناس من السودانيين سبق لهم التوظف فى مديريات مصر دون الملحقات » .

ألم يقل أحد مؤرخى ذلك العصر من السودانيين « ان الحكومة مسئولة عن أعمال الذين لا همّ لهم غير حشد المال بطرق الجور مما اشتهر أمره ولم يعد خافيا على أحد ، وبيع المناصب بالآلاف من الذهب . ولكننى أبرئ من وصمة عار مايحدث جلالة أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد ونائبه سمو الخديو توفيق باشا فإنهما لم يعلما شيئا منه ، ومن فعل الفئة الطامحة إلى امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . ولست أؤمل البتّة فى إصلاح حال السودان ما دامت الحكمدارية تريد السلب والابتزاز » .

ألم يقل آخر « كل دولة فشت فيها الرشوة تداعت أركان عزها ، وتقوضت دعائم مجدها . وما سمعنا قط بمثل ما هو واقع الآن فى الخرطوم من بيع مناصب الدولة لأناس ليسوا لها أهلا . وأن ثمن كل منصب محدود معلوم . وقد أخذ الأغنياء يشترونها ليتوصلوا بها إلى ابتزاز أموال الآخرين » .

« إن أكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونه من مصر على غير إرادتهم لبعد السودان وشدة حره ومشاقه . فكانوا لا يهتمون فى الغالب إلا بالانتفاع من وظائفهم ، فيفرضون على المديرين أموالا باسم الهدايا فيضطر

المديرون إلى استرجاعها من مأمورى المراكز الذين تحت إدارتهم أو من الباشبوزق الموكلين بجمع الضرائب . وهؤلاء يفرضونها على الأهالى أضعافا لأجل وفاء ما فرض عليهم وحفظ شىء منها لأنفسهم . وكانوا يشددون على الأهالى فى هذا التحصيل وهم آمنون من القصاص للتواطئ مع الولاة والمديرين » .

وقد شاهد محمد احمد فيما شاهده أرواحا مهددة وحريات مغتصبة وأملاكا منتزعة و بلادا مخربة ، هجرها أهلها خوفا من شدة الضرائب وفرارا من قسوة الجباة . إن الضريبة الواحدة لتزداد وترتفع حتى « ليدفع الرجل فى ضريبة العشرين قرشا خمسمائة قرش أو تزيد ، والجباة يحملون قدر ثلثها إلى ناظر القسم وقدر الثلث إلى المدير . وهكذا حتى لا يصل إلى الخزانة العامة غير العشرين قرشا . وكانوا أحيانا يقسمونها إلى خمسة أقسام . الأول كانوا يسمونه ضريبة الخديو ويزعمون أنه يدخل جيبه الخاص ، والثانى ضريبة الخزانة المصرية ، والثالث ضريبة خزانة الخرطوم ، والرابع للحكمدار ، والخامس للمدير والنظار » .

إن الرجل ليبيع متاعه وكل شىء لديه ليدفع الضريبة الباهظة ، فإن عجز سيق إلى ناظر القسم فتفنّن فى إذاقته العذاب ألوانا على مرأى ومسمع من أهله ليكون نكاله نذيرا وتذكرة للآخرين . إنه « ليطرح أرضا على

وجهه وتدق أربعة أوتاد وتربط كلٌّ من يديه ورجليه إلى وتد منها » ويقف الجلاد يجلده بالسياط حتى يدمى جسده ، أو يلقى مكتوفا فى قيظ الهاجرة ولظى الشمس المتوقد يلهب جسده . «أو إنهم ليضعون فى سراويله هرًّا بعد أن تغل يداه ويترك الهر فى داخل السراويل » ، ويهوون عليه ضربا بالسياط والهر يمزق جسده تمزيقا ، « وأن المرأة الحسناء لتحبس إذا تأخر زوجها أو وليّها عن وفاء الأموال الأميرية ، وتبقى فى السجن إلى أن يدفع ما عليه فيضطر للدفع مهما كلفه ذلك » .

أين المفر ، والخطب مستطير ، وحكومة مصر لا تستطيع مما بها من أحداث أن تسمع شكاية الشاكين وهى تجتاز عهدها الجديد . أن تذمر السكان أخذ يزداد ويظهر . فشكوا الفقر وسوء الإدارة والظلم والاضطهاد ، وآمنوا أن المصائب التى حلّت بهم مردها ومرجعها الى حكامهم الأتراك ، فاشتد نفورهم من حكامهم وتمكّن الحقد والوجد فى قلوبهم ، وأصبحوا يتمنون زوال هذه الحكومة التى سلطت عليهم من لا يرحمهم واستبدالها بأية حكومة أخرى ، وارتفعت أصواتهم سرًّا وجهراً « عشرة فى تُرْبة ، ولا ريال فى طُلْبَه » حتى أصبحت مثلا سائراً ونذيراً بما وطّدوا العزم عليه من شق عصا الطاعة والتمرد على ولى الأمر . فمن يلمّ شمل هذه النفوس الحائرة ويقوّى الأرواح الخائرة ويخوض بهم بحر مغامرة كبرى ، فيكسر الأصفاد المتعددة

الألوان التى كبّلها بهم حكامهم الترك ؟ و إذن « فالويل للترك ! . الويل للترك ! » . انهم يذكرون ذلك العهد حتى اليوم و إلى الأبد باسم « التركية السابقة » فى السودان ، ولا يسمونه بالحكم المصرى ، فقد كان الولاة كلهم من الأتراك . لقد برئت مصر من إثم ما حدث ، وكان سكان الوادى كلهم، شماله وجنوبه فى بلواء « الترك » سواء .

وما أبت السودان حكم حكومة
إلى أن أتى ضعف « المطاليب[1] » من مصر
فكالثلث والثلثين « للميرى » وحده
وللشيخ والنظار ، أضعافه ، فادر
بكتف شديد ، ثم ضربٍ مُبرّح
ومن بعده الإلقاء فى الشمس والحر
وأوتاد ذى الأوتاد ، من بعض فعلهم
وأشنع من ذا كله ، عمل الهر[2]

وسمع محمد احمد أيضا تذمر تجار الرقيق بعد أن قررت الحكومة والأوامر الصادرة من مصر ـ وفق المعاهدات الدولية لمنع تجارة الرقيق ـ وقف تلك التجارة

---

(١) المطاليب : جمع طلبة ، وهو الاسم الذى كان يطلق على الضرائب يومذاك ، لأنها مطلوب الحكومة من الأهالى (٢) قصيدة محمد شريف نور الدائم باشا

الآدمية الممقوتة . ولكن التجار ألفوا تلك التجارة منذ أمد بعيد وكانت لهم باباً من أبواب الرزق الواسع ، فعسير عليهم أن يدركوا فى إثرة النفوس وأنانيتها مغزى تلك الأوامر والمعاهدات أو أن يفهموا ما انطوت عليه تجارتهم من وحشية وقسوة إنسانية. إن الحكومة قد أرسلت إليهم أمثال بيكر وغوردون وجسى وجيجلر للضرب على أيديهم ، وهؤلاء نصارى لا يدينون بدينهم ، فتساءلوا هل أرادت الحكومة بدينهم و بهم شرا ؟ إنهم لا يدركون ، وكيف يدرك تاجر طمس حب المال بصره و بصيرته، وحال الجهل والاثرة بينه و بين فهم هذه المبادئ الإنسانية العالية ، فكانت سبباً آخر من أسباب الامتعاض والتذمر والتأهب للتمرد والوثوب .

أإذا ارتفعت موجة الثورة فى البلاد فهل تستطيع الحكومة القائمة لدفعها رداً ؟ إن حامياتها ضعيفة قليلة متفرقة فى أنحاء البلاد السحيقة لا تزيد فى مجموعها على أربعين ألف جندى أبعدوا عن مصر لتمردهم ومشاكستهم . « ترك » أشرار من الباشبوزق « انطوت قلوبهم على القسوة والتمرد ، لم تحسن الحكومة تدريبهم وتنظيمهم ، ولم تدفع لهم مرتباتهم إلا نادراً ، فعاثوا فى البلاد سلباً ونهباً ، وضباطهم أسوأ حالاً وأقسى طبعاً . منهم المنفى لسوء خلقه أو للسخط عليه ، ومنهم من ساقته الفاقة للعمل فى فيافى السودان البعيدة ، ومنهم من استدرجه حب جمع المال الى تلك الأنحاء النائية مسوقاً بسراب

الأمانى وسحر المجهول . فكان الضباط كجنودهم حثالة الجيش المصرى سيقوا إلى الجنوب سوقا للخلاص منهم » ، ينقصهم كل ما يزين الجندى من تدريب ونظام وشجاعة . ومن دون هؤلاء جنود « البازنجقر » وهم الجنود الوطنيون أكثر عددا وأسوأ خلقا . طووا قلوبهم على بغض زملائهم الجنود والحقد عليهم حقدا تزايد على مر الأيام .

تلك هى الحالة العامة فى أنحاء السودان . سوء إدارة ، وباهظ ضرائب ، وقسوة جُباة ، وتوثب للثورة وتأهب للتمرد والعصيان . والسودان فى حالته الثقافية لم تصله من مبادئ حقوق الإنسان التى جاء بها أعلام بعثات محمد على وإسماعيل إلى مصر ونشروها بين الناس فساعدت على تغذية حركة العرابيين والوطنيين ودفعتهم إلى القيام بحركتهم الإصلاحية والاستقلالية ، ولكن للسودان فى الطرق الصوفية العديدة بواعث ودوافع أخرى لا تقل فى قوتها عن تلك البواعث التى أثارت المصريين على حكامهم الأتراك . والناس ينظرون إلى تلك الطرق الصوفية ومشايخها وأقطابها نظرة قداسة ونظرتهم إلى الهداة المرشدين ، « وجعلوا منهم رؤساء يرجعون إليهم فى أمور الدين والسياسة معا ، لأنهم يرون أن امتزاجهما واجب ديناً ، بل هم يعتقدون أن السياسة بنت الدين ، ودليلهم على ذلك أن الممالك البشرية لم يرسخ بناؤها

وينبسط نفوذها وينتشر لواؤها بين أقوام إلا بعد اجتماعهم على وحدة دينية أو قومية ، والأولى أقوى ، وبهذا تراهم ينقادون لمشايخهم انقيادا أعمى ويفدونهم بأرواحهم وأموالهم ، ويَصْلون كل من أهان أساتذتهم ومشايخهم ولو إهانة خفيفة حربا عوانا . ولا يكون ذلك إلا بعد أن يتحققوا من علم هؤلاء الأئمة وعفتهم وأمانتهم وكمال عقولهم ومحافظتهم على أحكام الشريعة المحمدية » وقد كانت تلك روح العصر فى وادى النيل وفى البلاد الشرقية الإسلامية جمعاء .

ومن تلك الطرق الصوفية المنتشرة فى السودان الطريقة القادرية أو الجيلانية ، والسَّمانية ، والشاذلية ، والميرغنية ، والاسماعيلية ، والتيجانية ، والأحمدية ، والرفاعية وغيرها . وكانت الطريقة السمانية يومذاك أوسع الطرق انتشارا وأرفعها مكانة حتى ليكاد المنتسبون إليها يبلغون ثلثى سكان السودان ولها شيخان يتنازعان أمرها هما الشيخ محمد شريف نور الدائم باشا شيخ محمد احمد الأول والشيخ القرشى وَدْ الزين فى المسلمية شيخ محمد احمد الثانى بعد أن أقصاه شيخه الأول ، وتولى شؤون المشيخة ورئاستها بعد وفاته ، فأقبل عليه عدد كبير من تلاميذ شيخه الأول يطلبون الانخراط فى سلك تلاميذه ومحبيه بعد أن اشتهر أمر زهده وصلاحه وتمسكه بتعاليم الدين .

إن الناس فى بساطتهم لينظرون إلى أولئك الدراويش الذين يجوبون

الأرض وينتقلون من مكان إلى مكان فى جببهم المرقعة ، وطواقيهم المقرّنة ، وسبحهم الطويلة ، وشعورهم الكثّة ، وتصرفاتهم الغريبة ، نظرة الإجلال والقداسة . فمن يدرى لعل الخضر عليه السلام يدرج فى زى واحد منهم . إنهم يقدمون على السودان من بلاد فارس والمغرب والحجاز والشام لايسألون الناس الحافاً ، ولا يمدون أيديهم بالمسألة ، فإن أعطُوا أخذوا ، وإن لم يُعطوا ذهبوا لطِيَّتهم يذرعون فجاج الأرض الفضاء .

إن المتصوفة من رجال تلك الطرق يعتقدون فى إمام يخرج آخر الزمن يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ويستبدل أحكام القانون الوضعى بالقانون الشرعى . أيكون هذا الإمام المنتظر من هؤلاء الدراويش السائحين فى بلاد الله ؟ أم يكون وليّا من الأولياء الصالحين مشائخ الطرق الصوفية وأعلام الدين الزاهدين ؟ فإن كان من هؤلاء فأى مشايخ الطرق الراهنة يومذاك جدير بهذا المقام السامى واللقب الرفيع والولاية الشاملة والامامة العليا ؟

إن محمد احمد الولى الزاهد المتبتّل قد شاهد غير ما شاهده من أحوال البلاد نكرا واستهتارا وغواية بالغة وخروجا على تعاليم الإسلام . والناس بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم إلى التكالب على لذاذات الدنيا والانغماس فى الشهوات ، وبين فقير طحنه الاملاق والظلم ففقد زمام التجمل والصبر وانزلق

على قلة ذات يده فى مهاوى الغواية والرغائب . وقد شاهد ولى جزيرة أبا فى الأبيّض حفل زواج على طبيعة شاذة وعرف غير مألوف . أيسكت عن أمثال هذا الموقف الشاذ وعن أمثال غيره مما شاهد وسمع ؟ كلا إنه لن يكون ضعيف الإيمان يغير المنكر بقلبه . وأين القانون الزاجر والشرع القائم والسنة المتبعة التى تردع كل آثم فترده إلى نهج الخير والصواب . إن قوانين الحكومة القائمة لتحل شرب الخمر والغواية وتأخذ الضرائب الفادحة ، ولا تقطع يد السارق ، ولا تجبى الخراج والزكاة . إنها حكومة غير إسلامية ، إنها حكومة الكافرين . إنه يا طالما جرى على لسانه قول الله تعالى « فلا تخشوُا الناسَ واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يَحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هم الكافرون » ويسترسل فى تلاوته فتعترضه فى نهاية الآيات ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ، ويمضى قليلا فيقف عند ختام الآية الأخرى ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . إنه لحكم جائر وفساد سادر « أفحكمَ الجاهلية يبغون ، ومن أحسنُ من اللهِ حكما لقومٍ يوقنون » . إن كل شىء يجب أن يتبدل حكما وعرفا وقانونا ونظاما اجتماعيا ، فتحل الشدة محل اللين ، والحزم محل التراخى ، ويومئذ يستقيم الأمر ، ويعلو شأن الإسلام .

فكر محمد احمد فى العودة إلى جزيرته بعد أن بسط نفوذه فى جميع

أنحاء غرب السودان ، وفى نفسه ما فيها من رغبات وآمال جسيمة فى الإصلاح والجهاد . وتهافتت عليه القبائل الضاربة فى الأرجاء السحيقة تؤكد ولاءها ومساعدتها . أفحدثهم عن سره سرا ؟ إنه إذا جلس استمع له الأتباع المخلصون المؤمنون ، والمتذمرون الساخطون ، وارهفوا الآذان إلى صوته الساحر ، وأخذوا ببريق عيونه الآمرة ، وفتنتهم وضاءة ابتسامة فلجته الجميلة . وأن صوته فى وعظه لهم ليرتفع فجأة يحدثهم عن الخلاص والنجاة ، ويحثهم على ترك الآثام الفاشية فلا خمر تشرب ، ولا غواية ترتكب ، ولا تكالب على الدنيا ، ولا انزلاق فى الموبقات ، ولا لهو ولا مجانة فى حفلات ختان أو زواج ، ولا كذب ولا حسد ولا ترك لصلاة من الصلوات . إنهم إن فعلوا ذلك وضح لهم طريق الحق ، وأصبحوا جنوداً بسلاء فى جيش الخلاص ، فكسروا القيود وحطموا الأغلال . إنه ليردد ذلك فى كل وقت وفى كل مكان وعقب كل صلاة ، ومساء كل نهار حتى انطبع فى نفوس السامعين ووقر فى أعماق قلوبهم .

أكان ذلك أول صوت ارتفع مؤذناً بهبوب العاصفة ؟ أم أن هناك أصواتاً أخرى مكتومة ستنطلق يوماً ما، قوية تملأ الفجاج : الله أكبر ! الله أكبر ! الجهاد الجهاد فى شأن الله ورسوله ؟

انه لعصر مضطرب وحكم جائر، ومجانة فاشية ، وصوفية طاغية ، وتضرّم

بركان يوشك أن ينفجر على يد زعيم فى أية صورة من صور الزعامة ، ليجعل الاضطراب استقراراً ، والجور عدلا ، والمجانة استقامة ، والصوفية عرفاً وتقليداً عاما .

عاد محمد أحمد إلى جزيرته ، فهرع إلى غاره للصلاة والصيام والتهجد والرياضة القاسية . إنه ليحن إلى الطيوف التى شاهدها ، والأصوات التى سمعها ، والأنوار التى غمرته فبُهر لها ، والمشاهدة الروحانية التى وقف أمامها حائراً ذاهلا مبهوتا .

٣

خرج محمد احمد من غاره بعد خلوة رياضةٍ روحية دامت أربعين يوماً هزيلاً ضامراً وضّاء المحيّا أزهر البسمات ، ولـكن مظهره اليوم غيره بالأمس حينما كان يخلو بنفسه ويطلع على أحبابه ومريديه . فمـا له كانّ أمراً جللاً يوشك أن يقع ؟ فلمـا دنا منه محبوه سمعوه يردد : « بسم الله ما شاء الله ، لا يسوق الخـير إلا الله . ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله . ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله . ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله . إنى آمنت بالله ، ورجعت إلى الله ، وتوكلت على الله ، واعتصمت بالله . فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وهو حسبى ونعم الوكيل » .

« إن غاية الـكمال الصوفى هو طلب الفناء عن النفس والاخلاص فى مشاهدة الحق حتى تغيب السماوات والأرض وما بينهما عن فـكر المريد ، وتزول الصور الروحانية والقوى الجسمانية ، وتغيب ذاته فى جمـلة الذوات الروحانية ، ويتلاشى الـكل ويضمحل ولا يبقى إلا الواحد الحق . ويشاهد المريد حينئذ مالا يصفه الواصفون ، ولا يعقله إلا الواصلون العارفون » .

جاهد محمد احمد فى الحياة هوى نفسه فانتصر عليها ، وطلب « غاية الكمال الصوفى » علماً وزهداً وصبراً ومداومة تبتّل ومُطاولة رغاب فقطع طريق السالكين ووصل بعد طول عناء الى مشاهدة الحق ، وتذاوب فى جملة الذوات الروحانية فصار رمز أمر جلل وداعية عهد جديد .

أسَرّ محمد احمد أول ما أسرّ مما رأى من مكاشفات روحانية ، وتجلّيات ربّانية إلى صفيّه الحميم عبد الله التعايشى فقد كان ألصق أحبابه به وأكثرهم إيماناً بقدسه . فأنبأه فى زيارته الثانية إلى الغرب بالفيوض النبوية التى حلّت به والأمانة الكبرى التى وضعت على عاتقه تنزلاً من الملأ النورانى ليدعو المؤمنين فى بقاع الأرض قاطبة إلى الإسراع فى تلبية صريخها والالتفاف حولها . ثم أسر الأمر أخرى الى أحبائه وتلاميذه الأمثل فالأمثل . وبقى كل شىء سرًّا محجّبا فى صدره وصدورهم الى اليوم الموقوت .

أما اليوم وفى غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ فانه ليعلن الى الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق الصوفية ورؤساء العشائر والقبائل انه « المهدى المنتظر » الذى سيملأ الأرض عدلا كما مُلئت جوراً ، ويعيد للشريعة النبوية والتعاليم الاسلامية سابق مجدها ويوطد أسسها فى الأرض توطيداً . فبعث بمنشوراته الى من بعث من السودانيين وغير السودانيين يشرح لهم فيها ما رأى وما سمع يقظة ومناماً .

هكذا أعلن المهدى أمر دعوته على محبيه وتلاميذه وعلى البلاد كلها، قوى الحجة قوى الايمـان عازماً على أن يضطلع بالأمر مهما كانت النتائج ومهما قامت فى وجهه العقبات والصعاب . فارتفع النداء وتجاوب فى أنحاء البلاد فخف الناس إليه أفواجاً أفواجاً فى جزيرة أبا ، ليدخلوا فى دعوته و ينتظموا فى عداد مريديه وأنصاره ، و يضعوا أيديهم فى يده ، و يخفوا معـه سراعاً الى نصرة الدين و إعلاء شأنه .

« وفى منتصف شعبان اجتمع فى جزيرة أبا خلق كثير ، فقام المهدى بعد انتهاء الصلاة خطيباً فى محبيه ، وعدّد فى خطابه رزايا الدين و أبان وجوه الظلم والجور اللذين أصابا الأمة السودانية والمسلمين ، وأكد لهم أن سبب ذلك ضعف الادارة وجورها ، وأطال فى الأسباب التى كانت مقدمة لتلك النتائج ، والأمور التى أفضت الى ثورة عرابى وما أعقب ذلك من أحداث جسام فى مصر » . فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب وكبّر الحاضرون وهلّلوا ، ثم طلب من أحبابه أن يقطعوه الميثاق والعهد ، فبايعوه على الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًّا ورسولاً وبه إماماً ومهديًّا وعلى زهد الدنيا وعلى الجهاد فى سبيل الله .

هذا هو « مهدى الله » محمد احمد الولى الصالح . فمـا المهدية فى العرف والميثالوجيا الاسلاميـة ؟ تطور الخلاف الذى نشب بين على ومعاوية الى أن

أصبح من فرق المسلمين سنيّون وشيعة وخوارج . والشيعة والسنّيين معتقد بنظرية المهدى ثابت ، انتشر حتى قرّ فى عرف الكافة ومعتقدها . فالشيعة ترى أن المهدى قد ظهر فعلا فى نهاية القرن الثالث الهجرى بظهور محمد بن الحسن الخالص من سلالة الحسين بن على ، وهو آخر أئمتهم الاثنى عشر . ومن ألقابه عندهم : الإمام ، والحجة ، والمهدى ، والمنتظر ، وصاحب الزمان. ويزعمون أنه دخل سرداباً فى دار أبيه « بسُرّ من رأى » ولم يعد، فهم يعتقدون أنه لا يزال حيًا وأنه سيظهر فى آخر الزمان .

والسنّيون يرتقبون خروج رجل من أهل البيت فى آخر الزمان يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . ويستندون فى ذلك إلى أحاديث مروية ، وأشراط محققة قبل الظهور وصفات لازمة . فهو عندهم من بنى فاطمة وانه يولد بالمدينة ، أفرق الثنايا (مفلّجها) على خده الأيمن خال . وانه يخرج من أقصى الغرب ، ومن أعلامه البيض والصفر ، وغير البيض والصفر مرقوم عليها اسم الله الأعظم ، فلا تنهزم له راية . وخفوق تلك الرايات من شاطئ البحر فى موضع يقال له : جبل ماسّه . وآية زمانه ، زمان يعم فيه الظلم والفجور وتتداعى أركان السنة والدين ، ويتعثر الناس فى زلل المعصية والخروج على أحكام الشرع ، فيردها المهدى سيرتها الأولى عدلاً وحقًا ورجوعاً الى حمى الدين وتمسكاً بالكتاب وتعلقاً بالسنة .

على أن علماء السنة وقفوا من تلك الأحاديث المروية موقف الخلاف ، فمنهم من ركن إلى تصديقها فارتقب ظهور المهدى ، ومنهم من ازورّ عنها فلم ينتظر ظهوره . ولكن هذا الخلاف بين السنيين لم يؤثر فى اعتقاد كافة المسلمين فى نظرية المهدى ، فظهر بين المسلمين — سنيين وشيعة — على مدى الأزمان مهديون عديدون ، كُتب لبعضهم التوفيق فأسسوا دولا عظيمة بقيت بعدهم أمداً طويلا ، وأخفق بعضهم الآخر ولم يدركوا من أمرهم شأواً بعيداً .

ان محمد أحمد ليذكر فى التدليل على هذه النظرية وإثبات علاماتها وأشراطها فى ختام أحد منشوراته فى أول الدعوة « إن أبى حسنى من جهة أبيه وأمه ، وأمى كذلك من جهة أمها وأبوها عباسى ، والعلم لله ، إن لى نسبة إلى الحسين . وهذه المعانى الحسان تكفى لمن أدركه الله بالإيمان » . وهو بعد ، أفرق الثنايا (مفلجها) على خده الأيمن خال . وهو يقف من هذه الأحاديث المروية التى اختلف فيها السنيون موقف الشارح لتضاربها المؤول لمعانيها ، المرتكن فى ذلك إلى « معرفة النفوس البشرية التى يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ، ما تستمد به من محض الفيض الإلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان . وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه الناس عن أساتذة التعليم . ثم تصدر

عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حُمّلت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة لذلك » .

ويُنهى إلى أتباعه وأنصاره فى شرح ذلك كله « أنه لما حصل لى يا أحبابى من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى — المهدية — أمرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى « ماسّة » بجبل قدير ، وأمرنى أن أكاتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً . فكاتبنا بذلك الأمراء ومشائخ الدين ، فأنكر الأشقياء وصدق الصديقون الذين لا يبالون فيما يلاقونه فى الله من مكروه وما يفوتهم من المحبوب المشتهى ، بل هم ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى بقوله « تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

« وحيث ان الأمر لله ، والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدى بن عبد الله ، فيجب بذلك التصديق لإرادة الله . وقد اجتمع السلف والخلف فى تفويض العلم لله ، فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين ، بل « يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب » . قال تعالى : « لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » ، و« لا يُسأل عما يفعل » ، و« يخلق ما يشاء ويختار » ، و« يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

«وقد قال الشيخ محى الدين بن عربى فى تفسيره على القرآن العظيم « علم المهدى كعلم الساعة ، والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله » .

«وقال الشيخ أحمد بن ادريس : « يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها . هذا ولا يخفى علمكم أن التأليفات الواردة فى المهدى منها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك ، فيختلف كل منها كما علمت من أنه يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

«ومنها الأحاديث : فمنها الضعيف ، والمقطوع ، والمنسوخ ، والموضوع . بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح ، والصحيح ينسخ بعضه بعضا ، كما أن الآيات تنسخها الآيات : وحقيقة ذلك على ما هى عليه لا يعرفها إلا أهل المشاهدة والبصائر » .

* * *

لم تعد دعوة مهدى الله وخليفة رسوله سراً يتهامسه الأحباب والمريدون ، بل أصبحت خبراً مكشوفاً ونبأ متردداً على أطراف الألسنة والأفواه . وأخذ الناس يتحدثون عن ظهور كرامات وخوارق للمهدى . فقد أقسم الثقات العدول ولا يزال منهم معمرون على قيد الحياة أنهم شاهدوا اسم المهدى محمد أحمد مرقوماً على أوراق الأشجار فى مختلف أنحاء البلاد ، فى أشجار البادية حيث لا أيد تكتب ولا إنسان مقيم . وشاهدوه فى أوراق أشجار المدن المختلفة ،

فى المدن التى يسكنها بعض تلاميذه ومريديه ، وفى الحواضر الصاخبة بالترف والملاذ التى لا يؤمن ساكنوها ولا يصدقون . وأقسم الثقات العدول ولا يزال منهم معمرون على قيد الحياة أيضاً ، إنهم شاهدوا اسم المهدى محمد أحمد مكتوباً على بيض الطيور البرية ، وعلى بيض طيور الحضر الداجنة . تسقط البيضة واسمه فوق قشرتها كأنما خطته أنامل خطاط بارع .

إنها الكرامات والخوارق ، وكم للأولياء والصالحين والزهاد والمتصوفة من كرامات وخوارق ، يثبتها الواقع الملموس وتقف منها العقول موقف الغرابة والذهول ، ويقف منها العلم الطبيعى موقف الجاحد لها المتشكك فى أمرها . ولكنها تقف من العلم والمنطق موقف خوارق ما وراء الطبيعة وأسرار الغيب المحجبة لا يعلمها إلا مبدعها الذى لم يؤت عباده من العلم إلا قليلا ، والذى لا يحيطون بشىء من علمه إلا باذنه .

ان المهدى لم يكن أول من ظهرت له تلك الكرامات والخوارق . فقد سبقه إليها أولياء عديدون وزهاد فى كل ملة ودين . وشاهدها ثقات عدول عياناً ولمسا ، وليس بعد العين واللمس دليل لمتشكك . وظهرت له أيضا غير وجود اسمه على أوراق الأشجار و بيض الدجاج والطيور كرامات أخرى أثناء المعارك العديدة التى نشبت بين أنصاره المجاهدين و بين جنود الحكومة . فقد شاهد أتباعه وجنوده رايات تخفق وأنواراً تتألق ونيراناً تشب فى صرعى الوغى

من جنود الحكومة . والناس من تلك الكرمات إما مؤمن به مصدق بها ، أو كافر به مكذب لها ، أو متربص مرتقب نهاية الصراع يرى ويسمع ولا يستطيع أن يُبدي رأى مرتاب فى شهادة عدول إثبات .

وما بال العقل المادى يقف منها موقف الساخر الذى يعدها خرافات وأوهاماً ؟ وفى الطبيعة من أسرار الكون الدفينة وألغازه الغامضة ما وقف منه العلم الطبيعى ، وما وقف منه الماديون موقف الحيرة وجهل التعليل ؟ وكل يوم تسفر الطبيعة ويميط الكون عن لثام ألغازه ومكنون أسراره ما يبلبل العقول ويحير منطق الممكن المعقول . إن مُثلات ما حدث من كرامات المهدى عديدة فى طوايا التاريخ وحقبه . صدقها بعض الناس وازورّ عنها البعض الآخر وبقيت برغم التكذيب لها والتشكك فيها لاصقة بتاريخ القديسين والصالحين فى كل ملة ودين .

فالسودان كله يتطلع اليوم إلى المنقذ الذى سيحطم عنه قيود الظلم والاستبداد وسوء الإدارة وباهظ الضرائب ، والناس كلهم يتطلعون أيضاً إلى هذا المهدى المنتظر الذى أعلن دعوته وأشهر أمره ، وطلب الناس إلى الجهاد فى سبيل الله لإعادة ماضى الإسلام المجيد . وقد توفرت فيه من شروط المهدية كما يعتقدونها أمارات لا سبيل إلى نكرانها ، وظهرت له من الكرامات ما لا يقبل الشك والارتياب .

إن محمد شريف باشا نقيب الأشراف وشيخ المهدى الأول يدخل على رءوف باشا حكمدار السودان (الحاكم العام) ينهى إليه حُمادى ما وقف عليه من أمر هـذا الداعية الزاهد ، ويطلب منه الإسراع فى إخماد تلك الحركة الجديدة التى ذَرّ قرنها قبل أن يستفحل أمرها ويتلظى أوارها فيصعب إخمادها والقضاء عليها . والحكمدار يتباسم إليه لأنه يعلم ما بين الرجلين بل بين الشيخ القديم والتلميذ القديم من سابق جفوة وقطيعة ، ويعزو قول الباشا نقيب الأشراف إلى حسد القلوب وضغن النفوس . ولكن الحكمدار يقع فى يده منشور من منشورات المهدى فيكتب إليه يسائله جلية الأمر لعل المهدى لم يكتبه ولعل عدواً دسه عليه . فيرد عليه المهدى مؤكداً له ما قرأ وما سمع لأن « دعائى الخلق إلى تقويم السنة ، والأعلام بأنى المهدى المنتظر أمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، تعاقب علىّ مراراً مع الهواتف الإلهية . فمن تبعنى صار من المقربين الفائزين ، ومن خالف خذله الله فى الدارين ، وصدّه بقوته التى يعجز عن معارضتها جميع العالمين » .

أدرك رءوف باشا أن الأمر حق لا باطل وجد لا هزل فيه . فاستقر رأيه على إرسال مندوب لدعوة المهدى إلى الخرطوم . فقابله رسول الحكومة فى ٧ أغسطس سنة ١٨٨١ ليسارع إلى مقابلة الحكمدار ولى الأمر الذى تجب طاعته ، ولمقابلة العلماء من رجال الدين لمناقشته فيما جهر به ، ولكن

لا طاعة بعد اليوم لحكمدار ولا ولىّ للأمر غير المهدى! . وهدده الرسول بقوة الحكومة وجندها ، وإنه لا قبل له بالوقوف فى وجهها ومحاربتها وشق عصا الطاعة عليها . ولكن فى الوجود من القوى الروحية والمعنوية ما لا تستطيع قوى المادة والبطش أن تتغلب عليها، إذا آمنت النفوس وخلصت القلوب . فالمهدى يستطيع إذن خوض غمار الحرب ضد الحكومة وجيوشها بتلك القلّة من أعوانه الذين كانوا يجلسون حوله فهم كلهم « راضون بالموت فى سبيل الله وباذلون أرواحهم فى رضى الله ورسوله ومهديّه » . ذلك أول النفير واندلاع ألسنة النار .

علم المهدى أن الساعة قد أزفت ، وأن الحكومة ستنازله القتال . وأرسلت الحكومة باخرتين بهما فصيلتان من المشاة ومثلهما من الفرسان . فلما رست الباخرتان فى ليلة الجمعة ١٦ من رمضان سنة ١٢٩٨هـ — ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ سار الجند نحو القرية وأنصار المهدى يترقبونهم بين الأشجار والأيك الكثيف المتشابك، وهم لا يزيدون على حفنة قليلة من الرجال ولا يحملون « من السلاح سوى العصى والهراوات والرماح ، وعدد العصى يربو على عدد الرماح ، ولم يكن عندهم من السيوف غير سيفين أحدهما للمهدى والآخر لأحد أقاربه » .

وانطلق الرصاص من جند الحكومة والليل أليل والأحراش كثيفة ،

ونظام الجند واهن مفكك والقائدان مختلفان . فوثب عليهم الأنصار وأبادوهم إلا قليلا بالعصى والرماح ، وارتدت الباخرتان تدافعان التيار هرباً صوب الخرطوم لتبلغا الحكمدار نبأ الكارثة ، وتذيعا فى الناس نبأ انتصار المهدى وأنصاره العزّل على الجنود المدججين بالسلاح .

أدرك المهدى أن الحكومة ستلاحقه بقواتها لأخذ ثأرها ورفع مهابتها فى عيون الناس والقضاء على الفتنة التى لم تكن لها فى الحسبان . فهاجر المهدى بأنصاره إلى جبل ماسّة الملاصق لجبل قدير ، بعد أن نظم جنده ونصّب خلفاءه فأعطى رايته الزرقاء لصفيه عبد الله التعايشى ولقبه بخليفة أبى بكر الصديق ، وأعطى الراية الخضراء للخليفة على وَدْ حِلُو خليفة عمر بن الخطاب ، وأعطى الراية الحمراء لابن عمه محمد شريف خليفة الكرار (على بن أبى طالب) وترك الراية الصفراء ليعقد لواءها على السنوسى خليفة عثمان ابن عفان ، وكتب له بذلك فيما بعد فلم يرد عليه، و بقيت تلك الراية بدون خليفة حتى موته . وزيّن المهدى تلك الرايات والأعلام باسم الله ورسوله ومحمد المهدى خليفته . وجعل صاحب الجيش عبد الله التعايشى ، وخص كل خليفة بنحاس (طبل) كبير خاص به تتميز ضرباته عن الطبول الأخرى حينما تُستنفر الرايات والجيوش للحرب أو العرضة (الاستعراض) التى كانت تقام فى كل يوم جمعة ، فيقف

AUC - LIBRARY

الجند متجهين نحو القبلة كوقوفهم للصلاة . وكانت رقع ثياب أنصاره الدراويش من ألوان تلك الرايات .

وقلد المهدى شؤون القضاء للشيخ محمد أحمد جباره ولقبه بقاضى الإسلام ، وجعل دونه قضاة ونوابا آخرين عديدين . وخص القضاة بالحكم فى المسائل الشرعية والأهلية . والنواب لشؤون الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال والشكاوى والظلامات التى ترفع إليه ليعرضوا عليه ملخصها فيمدهم بآرائه ومشورته . وعين نوابا آخرين من أهل النظر والعلم للفصل فى شؤون ما قبل المهدية . ونظم بيت المال تنظيما إسلاميا بحتا ، ففرض الزكاة على النقود والماشية ، والعشور على الزرع والمحصول . كل ذلك مؤقتا حتى تستقر الأمور وتنبلج نتائج الصراع الذى نشب بينه وبين الحكومة . فاذا انتهت مقاليد الأمور إليه وتوطدت أركان المهدية نظر فى هذه الشؤون مرة أخرى فعدلها وزاد فيها .

هاجر المهدى وأنصاره إلى جبل قدير ، إلى ماسة بغرب السودان . وسمّى الذين انتقلوا معه بالمهاجرين والذين أيدوه من قبل بالأنصار ، وأطلق عليهم غير ذلك الأحباب والإخوان . سبق المهدىَ انتصارُه على جند الحكومة إلى كردفان ودارفور وشرق السودان وشماله وجنوبه . وأخذ الناس يهرعون من كل صوب للانضمام إليه والانضواء تحت ألويته ، والاستشهاد فى سبيل الله ورسوله ومهديه ، ويعدون العدة للوثوب على عمال الحكومة فى كل مكان ،

وخوض غمار الحرب الدينية . فبطشوا بجامعى الضرائب وحاصروا الحاميات وذكروا الثارات القديمة ، فقد دنت ساعة تحطيم القيود والخلاص من وطأة المظالم والاستبداد . فالويل للترك ! الويل للترك !

تغلب المهدى فى هجرته تلك على المختار مَكْ (ملك) جبل الجرادة ، وفتك بجيوش راشد بك وأبادهم عن آخرهم . إن المهدى يخرج اليوم من نصر إلى نصر فيزيده ذلك تمكينا فى قلوب أنصاره ويجتذب إليه نفوس المترددين إلى التصديق به . وفزع رءوف باشا فحصن فشوده فى الجنوب وطلب النجدة من مصر ، ومصر من أمرها وأمر العرابيين فى أعقاب سنة ١٨٨١ فى شغل عن السودان شاغل . فعُزل رءوف باشا وعُين عبد القادر حلمى باشا خلفا له فوصل الخرطوم فى ١١ مايو سنة ١٨٨٢ .

كان المهدى على علم تام بما يدور فى مصر ذاتها . فقد كان له فيها من يوافيه بأنبائها وأحوالها . وإن أحد أولئك الأعوان ليكتب له : « إن عبد القادر حلمى باشا سيسافر قريبا إلى الخرطوم ، وأن الأحوال فى مصر تنتقل من سيئ إلى أسوأ ، وأن الثائرين العرابيين تقوى عزائمهم كل يوم ، وأن حكومة مصر يلوح عليها أنها لا تقوى على مد يد المساعدة إلى السودان . وبلغنى أن الحكومة ساعية فى إبرام معاهدة سلم مع الحبشة ليتاح لها استقدام جنودها المعسكرين فى حدودها لاستخدامها فى محاربتكم » .

وورد على المهدى أيضا من ذلك الصفى « أن الحكومة الخديوية منقسمة إلى قسمين : أحدهما خديوىّ والثانى وطنى برئاسة رجل من متأدبى الشعب يدعى أحمد بك عرابى ، كانت أخلاقه منذ نشأته ميالة إلى سعادة السواد الأعظم من فلاحى مصر . هذا، وإن الحكومة ناقمة على رءوف باشا وناسبة إليه كل الذى جرى من أمر دعوتكم . وسيصلكم عبد القادر باشا حكمداراً على السودان ، لأن الخديو يتهمه بأنه مشايع لرجال الحزب الوطنى ، ورجال الحزب الوطنى يتهمونه بأنه من حزب الخديو . وتنوى وزارة محمود باشا سامى البارودى التى هى الوزارة الوطنية التخلص منه بإبعاده إلى السودان ، وهو دليل قاطع على أن الحكومة الخديوية لا تهتم بأمر السودان » .

ووصل عبد القادر باشا إلى السودان وأخذ فى تدبير الأمور . فقامت حوله دسائس قنصل إحدى الدول ، ووشى به بأنه يريد فصل السودان عن مصر بتأييد الفرنسيين . وطالب عبد القادر باشا بالإمداد والنجدات فلم يجب له طلب ، فوطد نفسه على أن يعمل بما لديه من موارد قليلة وجند قليل وسلاح قليل .

إن جاسوس المهدى يكتب إليه من القاهرة مرة أخرى بأنه قد « اشتد الجفاء بين عبد القادر باشا والحكومة الخديوية . فالجناب الخديو يعتقد أن عبد القادر باشا ساع إلى فصل السودان عن أملاكه واستقلاله بالحكم

عليه . والعرابيون يعتقدون أن عبد القادر باشا قد أنقذه الخديو لحشد جيوش جرارة يقتص بها منهم على تمردهم على الخديو . على أن ذلك الاعتقاد من الطرفين يدل على مهارة تلك الدولة ذات المآرب فى السودان ، وعليه فكونوا على يقين بأن عبد القادر باشا لا يستطيع مهاجمتكم قبل أن تستولوا تماما على مدينة الأبيّض عاصمة كردفان » .

أكانت بين المهدى و بين عرابى والعرابيين صلات ومكاتبات ؟ إن بعض الأسانيد تشير إلى هذه الناحية دون أن توجد الوثائق التى يمكن الاعتماد عليها لتأييد هذا الرأى . غير أن المهدى فكر حينما حوصرت الخرطوم فى أسر غوردون حيا ليفتدى به عرابى .

وكان لزعماء العرابيين فى المنفى رأى جميل فى المهدى أورده الأستاذ الإمام محمد عبده فى جريدة « العروة الوثقى » التى كان يصدرها فى باريس هو والسيد جمال الدين الأفغانى . كما أن محمد عبده حينما اشتدت حركة المهدى فى السودان وذهب إلى لندن بدعوة من صديق مصر والمصريين المستر بلنت لمحادثة رجال السياسة الانجليزية فى الشؤون الشرقية ، ولاستطلاع آرائهم ونواياهم بشأن القضية المصرية ، و بتعبير السيد جمال الدين الأفغانى « ليستكشف مناصب الفخاخ السياسية ، وليسبر غور المطامع الانجليزية » دار حديث بين الشيخ الإمام ومندوب جريدة « بول مول غازيت » فى ١٧

أغسطس سنة ١٨٨٤ ، فسأله المندوب فيما سأله عن الحالة فى وادى النيل وعن المهدى فقال

الشيخ : « لا خطر على مصر من حركة المهدى ، إنما الخطر من وجودكم أنتم فيها . وإنكم إذا غادرتم مصر ، فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ولن يكون فى هجومه أدنى خطر . وهو الآن محبوب من الشعب (المصرى) لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوروبى ، وسينضمون إليه عند قدومه » .

المندوب : « أليس السودانيون قوما متعصبين » ؟

الشيخ : « ليس السودانيون أكثر تعصبا منى . فحينما كنت أعلم الفلسفة فى القاهرة كان كثيرون من الطلبة المصريين يخشون حضور دروسى ، بينما كان هناك أربعة وثمانون طالبا من السودان وكانوا جميعا يحضرون للاستماع إلىّ ! نعم . ليس السودانيون متعصبين . لكنهم إذا شعروا بالخطر الأجنبى يتهدد بلادهم ثاروا وأصبحوا حينئذ متعصبين ، وما مثلهم فى ذلك إلا مثلكم أنتم إذا رأيتم جيشا من المسلمين فى شوارع لندن » .

المندوب : « ألهذا الشعور علاقة بخبر الهياج فى بلاد العرب » ؟

الشيخ : « الخبر صحيح . وكنا ننتظره منذ زمان ، ولا شك فى أن تعاهدكم مع الأحباش قد سهل هذا الهياج . فالمسلمون إذا هددوا قاموا للجهاد ،

وليس أهل اليمن أشد تعصبا من أهل السودان ، ولكنهم يحبون حريتهم كما يحبها العرب جميعا » .

أهذا الموقف علاقة بامتناع الحكومة الخديوية عن إمداد عبد القادر باشا بما طلب من جند وأموال ؟ أفكر العرابيون فى أن تكون الثورة عامة فى أرجاء وادى النيل حتى يكون الإصلاح إذا كللت بالنجاح عاما أيضا ؟ أم إنه توافق الزمن ، وتشابه الأسباب ؟ ومهما يكن من شىء فذلك رأى قادة العرابيين فى المهدى ، وذلك أيضا كان ظن المهدى فى العرابيين .

وصل عبد القادر باشا إلى الخرطوم ولا يزال المهدى فى جبل ماسة . ولكنه اتصل بأعوانه وأحبابه فى الأُبَيِّض فقر الرأى على مهاجمتها . والثورة متأججة النيران فى كل مكان .

إن جيجلر باشا نائب الحكمدار يلح على الحكومة المصرية فى أن تأذن له بسحق المهدى فى قدير ، وعبد القادر باشا يعارض هذا الرأى . وتنفذ إرادة جيجلر ويخرج يوسف باشا الشلالى بجيشه اللجب ليلاقى حتفه على ظبا سيوف المهدى وأنصاره فى وضح الصباح بين مهلل ومكبر ، فلم ينج منهم غير قلة لاذت بالفرار فى الأودية والأحراش . أيرتاب بعد كل هذا فى دعوة المهدى مرتاب ؟

الطبول تدق ، والأعلام ترفرف ، والثورة فى كل قرية وكل مدينة ،

والحاميات محاصرة ، ورءوس الباشبوزق وجامعى الضرائب تطاح فى كل مكان . فكردفان ثائرة ودارفور ثائرة ، وأنصار المهدى يتوغلون فى الجزيرة ويهاجمون سنار . وقبائل الهدندوة يستثيرهم « عثمان دقنة » فى سواحل البحر الأحمر على التمرد والعصيان ، والبشارية ينهبون القوافل على حدود مصر ، والياس باشا وَدْ ام بَرِيْر[1] تاجر الرقيق ومدير كردفان السابق يستحث المهدى على مهاجمة الأُبَيّض ، والناس من كل صوب يترنمون وهم يسارعون الخطى إلى المهدى فى قدير .

هَوَايَ ، هواى ، أسيروا للمهدى ، فى قديرو[2]

إن وادى النيل كله ليستمع إلى صدى تلك الطبول وأنبائها ، وأوروبا البعيدة ترهف الآذان إلى الدوى المتجاوب من أنحاء السودان المصرى .

جمع المهدى شمله ووضع خطته المحكمة لمهاجمة الأُبَيّض والاستيلاء عليها . فهو عالم بأنها إذا سقطت فى قبضته فقد سقط إقليم كردفان كله فى يده . وتم له الاستقرار فى جبال النوبة بعد أن دوّخ جبالها وأنحاءها جبلا جبلا ، وسهل عليه إسقاط دارفور الإقليم الخصب المترامى الجنبات . فإذا انتهى كل ذلك فلن يجد مقاومة تذكر فى السيطرة على السودان بأسره ، ويجب أن

---

(١) البرير : ثمر الاراك .

(٢) أى أن هواى وما أرجوه أن أسير إلى المهدى للانضمام إليه فى جبل قدير .

يتم ذلك قبل أن يهيمن عبد القادر باشا حلمى على حكمدارية السودان وشئونه ويصبح سيد الموقف. فعبد القادر باشا ليس كمن عرف أنصاره فى «ابا» من جند وضباط ، وليس كراشد بك أو الشلالى باشا أو محمد سعيد باشا مدير كردفان القصير البدين الذى لقبه أنصار المهدى « بجراب الفول » ، وليس كرءوف باشا الحكمدار المتساهل الذى لا يكترث بشىء ولا يطلب غير السلامة فى معالجة الأمور . فعبد القادر صلب القناة ، أشوس ، واسع الدهاء ، خبير بفنون الحرب ، عليم بتدبير الأمور ، قدير على إدارة دفة السياسة، بعيد النظر ، بطّاش نفّاذ ، ولّاج خرّاج .

زحف المهدى على الأُبَيِّض ، ومن قبل قد تم الاتفاق بينه وبين أحبابه بهـا أمثال الياس باشا وغيره من السراة والأعيان على كل شىء منذ زيارته الثانية إلى غرب السودان قبيل إعلان دعوته ، وله فيها من الأعوان والأحباب خلق كثير . التجار المتذمرون من منع تجارة الرقيق واحتكار الحكومة لتجارة سن الفيل . ودافعوا الضرائب الذين لم يبق لهم من حطام الدنيا غير آثار السياط والجلد فوق ظهورهم . والفقهاء الذين أعلى من شأنهم ظهور صاحب الوقت المهدى المنتظر من بينهم . وأحباب الطريق الذين لقوا فى زاهد جزيرة أبا الرجاء المؤمل .

ومن غير هؤلاء وأولئك أنصار مؤمنون بالمهدى ودعوته يبيتون فى الليالى

السابقة للمعارك بين راكع وساجد وقائم وعابد ، يهلّلون ويكبرون متشوقين لطلوع شمس الغد لخوض المعارك ورى ظمأ السيوف والرماح . فمن استشهد منهم فى حومة الوغى فقد لقى ربه فى جنات الخلد راضياً مرضيًّا ، ومن أثخنته الكلوم والجراح فقد نال من أوسمة الحسنى والفخار ما لا يدانيه فى الوجود شرف أو فخار ، ومن خرج من المعمعة سليماً مُعافى فقد ساهم فى الجهاد والقتال فى « شأن الله ورسوله ومهديه » .

هجم المهدى على الأُبَيّض لخوض أولى المعارك الثلاث الفاصلة فى تاريخ المهدية فى السودان ، والأُبَيّض محصنة بالجند منيعة بالسلاح والخنادق والفن الحربى . وسلاح الفريقين غير متكافئ والفن العسكرى غير متوازن . والأنصار لا يملكون من الأسلحة سوى ما غنموه فى المعارك السالفة ، وما انتزعوه من أسلاب أعدائهم المنهزمين . ولكن أين تلك القوة كلها من حماس مجنون ، وشجاعة مستهترة بالموت ، وإيمان بالله ، وشوق الى القتال والاستشهاد . والمهدى قبيل كل معركة يبارك أنصاره ويحثهم على الفناء فى سبيل الله ويثيرهم ببلاغته الساحرة وآياته البينات ، فيتدافعون راكضين الى الموت تدافع الموج المشرئب الصاخب الى سِيف البحر .

الطبول تدق ، والأعلام المتباينة الألوان ترفرف ، والسيوف المسلولة تلمع وسط النّقع والغبار المتصاعد ، والرماح المشرعة تلوح كغابة عظيمة

متحركة ، وأصوات التهليل ودوى النحاس ـ نحاس الحرب ـ يطغى على صهيل الخيل العتاق وحمحمتها . وهكذا دوماً وفى كل مكان كانت حروب المهدى ومعاركه . والأنصار يطبقون على الأُبَيّض من كل جانب ورصاص الحامية المحكم الرميات يتدفق واكفاً مدراراً ، فيلاقيه الأنصار بالصدور غير مبالين . وتشتد وطأة القتال ويستبسل الفريقان ، فيقف الموت حيران أى الكفتين يرجح . ويشتد فتك الحامية بالأنصار فيرتدون قليلا الى وثبة أخرى بعد أمد وجيز يضيقون فيها الحصار على المدينة ، حتى يكاد أهلها يأكل بعضهم بعضاً من شدة الجوع . ويتهافت عليها الأنصار فيحطمون أسوارها ويقتحمون معاقلها، ويجتازون خنادقها، ويكسرون زرائبها، ويقضون على حاميتها التى أنهكها الحصار وهدّها الجوع، وأودى بروحها المعنوية اليأس وانقطاع الإمداد .

ويقبل سعيد باشا مدير كردفان وضباطه وموظفوه مستسلمين يبايعون المهدى ويدخلون فى عداد أنصاره على دَخَل من غدر ورِدّة ، فينكشف أمرهم وتطاح رءوسهم . ويستقر الأمر بيد ولى الأمر الجديد . ويستولى المهدى على غنائم لا حصر لها من سلاح وعتاد وأموال ، وغنائم أخرى معنوية لا حدّ لها من تأييد له وإيمان به ، ترفع شأنه وتعلى قدره وتؤكد للناس مهديته .

سقطت الأُبيّض وعبد القادر باشا حلمى قد انتهى من تحصين الخرطوم وسنار وتسليح الجنود وتنظيم الكتائب ، ومطاردة أنصار المهدى فى سنار والنيل الأبيض . ثم رفع صوته ملحًّا يطلب مدد المال والسلاح والجند من مصر فأصم الاحتلال أسماع المسئولين عن تلبية ندائه . ومع ذلك كله فعبد القادر باشا يحضر المعارك بنفسه و يديرها بثاقب عقله وفنه فيفتك بالأنصار ويدحرهم فى كل ميدان يلتحم معهم فيه ، حتى ضج فرسان الثورة من بأسه وخافوا مصاولته و بطشه ورفعوا أيديهم متضرعين : « ياقادر ! اكفنا شر عبد القادر » .

* * *

واصل عبد القادر باشا مكافحة الأنصار وقمع حركتهم على الرغم من انتصارات المهدى الباهرة فى الأُبيّض وغيرها . وكانت خطته التى رسمها أن يرابط بجيشه وأسطول البواخر النيلية على طول مجرى النيل الأبيض ، وأن يترك المهدى فى بيداء كردفان الى أن تصله النجدات من مصر . ولكن أنامل خفية تعبث من وراء ستار الاحتلال فى مصر لأمر مبيّت لمصر والسودان ، فحملت الحكومة المصرية على استدعاء عبد القادر باشا من السودان فى بكور سنة ١٨٨٣ وتعيين علاء الدين باشا خلفاً له ، وسليمان نيازى باشا قائداً عامًّا ، وهيكس باشا رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش . ومن قبله ذهب

الكولونل ستيوارت لدراسة حالة البلاد وكتابة تقرير شامل عنها اهتمت له وزارة الخارجية البريطانية أيما اهتمام .

استاء السودانيون والمصريون لاستدعاء عبد القادر باشا ، واستاء معهم الأجانب وتناصل الدول فى الخرطوم ، فكتبوا واستعطفوا الخديو توفيق لالغاء ذلك الأمر وإبقاء عبد القادر باشا فى منصبه ، لأنهم كانوا يرون فيه الشخص الوحيد الكفء القادر على منازلة أنصار المهدى ومناهضتهم . ولكن الأنامل الخفية تعبث من وراء ستار .

إن جاسوس المهدى فى القاهرة يكتب له بنبأ تولية محمد علاء الدين باشا حكمداراً للسودان ـ فكان آخر حاكم عام مصرى عليه ـ وإلغاء نظارة السودان ، ويطمئنه بأن « علاء الدين رجل لا يخشى منه أبداً » ، ويسترسل جاسوس المهدى فى خطاب آخر يشرح له فيه خفيات ما يدور من أمور فى مصر وإشاعات ونوايا حول السودان تقف منها حكومة مصر ـ فى محنة الاحتلال ـ موقف من لا يستطيع دفع غائلة ، وتمسك بحق ، ونظر بعيد فى طوايا المستقبل . وكيف السبيل إلى ذلك كله أو بعض ذلك ، والاحتلال يدير زمام الامور كما يهوى وتهوى سياسته ومقاصده .

تحركت الأنامل الخفية كشأنها دائماً ، فألغت الجيش المصرى ـ جيش عرابى ـ الثائر المتمرد فى مصر ، وأنشأت بدله جيشاً من فلول ذلك الجيش ،

وقررت إرساله إلى سحق الثورة فى السودان . عجيب أمر ذلك القرار . ثوّار يرسلون لمكافحة ثوّار ، وفلول مهزومة خائرة الروح المعنوية يُطاح بها لمناضلة جموع متوثبة قوية الروح المعنوية ، سكرى بنشوة الانتصارات المتعاقبة ، مجنونة بمبادئها تنشد الموت مستشهدة فى سبيلها .

وما لولاة الأمور فى مصر يتصامون عن سماع آراء عبد القادر باشا حلمى؟ وما لهم لا يستجيبون لمطالبه بعد أن حقق انتصارات عديدة على الأنصار . إنهم لو أصغوا قليلا لما قال لتغير تاريخ السودان ، ولكانت الحالة فى وادى النيل اليوم غير ماهى عليه . ولكن للأقدار تدبير فوق كل تدبير .

إن حملة هيكس التى أرادت الحكومة المصرية تسييرها لهزيمة المهدى قد عارض فيها عبد القادر باشا حلمى العليم بشئون السودان كبيرها وصغيرها ، العارف بمفاوزه وأرجائه ، المدرك لأحوال قبائله وأعيانه ، البصير بتدبير أموره ، الواقف على الوسائل الناجعة لاستقرار أحواله . ولم يرض عنها السودانيون والمصريون فى السودان لمعرفتهم بحقيقة الموقف ، فقدموا ألوف العرائض بإيقافها والأخذ بغيرها من الآراء العسكرية الممحصة السديدة « إلى المعية السنية والوزارة المصرية ، ولكنها لسوء الحظ لم تلق قبولا . ولم يقتصر رفع تلك العرائض على المصريين والسودانيين بل اشترك معهم فيها الأوربيون المقيمون فى السودان . وتدخل الهر هنزل قنصل النمسا والمجر فى الخرطوم بصفة

شبه رسمية » . ولـكنها كلها لم تجد نفعا ، ولم تلق لها أذنا صاغية . اتحركت تلك الأنامل الخفية من وراء ستار ؟

إن فلول جيش عرابى تساق مدداً للمعركة الثانية الفاصلة فى تاريخ المهدية ، وما يفعل جيش ظنّ جنوده أنهم مدفوعون دفعاً للتخلص منهم فى تلك المفاوز السحيقة والأرجاء النائية بجيش يلتهب حماساً ويتشوّق للموت استشهاداً ؟ وصل هيكس باشا رئيس هيئة أركان الحرب الجديدة الى السودان فأحرز انتصارات قليـلة على جموع الأنصار فى النيل الأبيض فخال نفسه قادراً على قهر الآخرين فى مفاوز كردفان .

واعد هيكس باشا عدته وجهز قواته وتقدمت الحملة العظيمة بجنودها ومؤنها وجمالهـا وفرسانها من « الدويم » عن طريق « شات » ، وقوامها ثلاثون ألف مقاتل ، بين جنود نظاميين وغير نظاميين ، ومعها المدافع والأسلحة وهيئة أركان حرب من مصريين وأجانب . فكان هيكس باشا قائداً عاماً ، وعلاء الدين باشا نائباً له . ورافقها من مراسـلى الصحف الأجنبية مكاتب الديلى نيوز والجرافيك والتيمس ، ولـكنه تأخر فى الساعة الأخيرة لمرضه فنجا من الحتوف التى أودت برفاقه ، وبعض كبار الموظفين والأعيان .

الطريق طويل ، والقيظ نيران الجحيم المتوقدة ، والماء قليل نذر ، وقواد الجيش وضباطه العظام مختلفون رأياً متجافون تفاهماً وداً . والجنود يتساقطون

إعياء ووجلا . والعدو يناوشهم من كل جانب ، والدليل مخاتل يضلل الجيش الذى أنهكه الحر اللافح وسرى الليل البهيم . فأوكل المهدى به أحد قواده يشاغله بالمهاجمة ليلا وبالجلبة والصياح نهاراً ، فاذا تأهب للقتال نكص راجعاً على أعقابه ، وإذا استعد للراحة عاوده مرة أخرى ، وهكذا دواليك إلى أن فقد الجنود والضباط الصبر والجلد .

كتب المهدى إلى هيكس باشا ينذره ويطلب منه وجنوده الدخول فى طاعته والإيمان بدعوته . ولكن هيكس القائد سيرد عليه يوم يلتقى الجمعان فى « شيكان » . وزحف المهدى إلى « الملبس » يناوش جيش الحكومة ويضيق عليه الخناق . وأخذ الرصاص يدوى رذاذاً من عصر يوم السبت ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ودام الليل كله فكان يتساقط من السهل الممتد والأحراش القريبة ومن كل مكان . وأين جيش المهدى وفى أى مكان يعسكر ؟ لم يدر هيكس عن مكان خصمه وقوته شيئاً . وأشرق يوم الأحد قائظاً متوهجاً وجنود الحملة لا يجدون ما يطفئون به الظمأ ، ورصاص العدو ينهمر عليهم من كل جانب فيتخطفهم واحداً بعد واحد .

ويكتب « أودونوفان » مراسل الديلى نيوز فى مذكراته مآسى تلك المجزرة المحزنة فيقول « إن خادمى جوستاف كلوتس قد فر إلى المهدى ، فأى

مصير يرتقب جيشنا يوم يدرك خادم أوروبى ألاّ نجاة له إلا بالفرار إلى أولئك المتوحشين . وها أنذا أكتب مذكراتى وأحرر رسائلى ولكن من ذا الذى يحملها إلى وطنى ؟ »

ويدوّن اللواء حسين مظهر باشا فى مذكراته بتاريخ الأحد ٤ نوفمبر :

« أنا حسين مظهر باشا من الذين تخرجوا فى مدارس مصر الحربية ، وأنا الآن قائد الفرقة الثالثة من الجيش المصرى فى السودان . وقد وصلنا إلى هذا الموضع « شيكان » منذ ثلاثة أيام . ومنذ أمس فقدنا الماء وصنف البطيخ الصغير الذى نشرب من مائه فبلغ منا الظمأ فى هذا اليوم مبلغه ، ونيران العدو تهطل علينا كالمطر ، وقد هلك أكثر دواب حملنا وهلك أكثر عساكرنا ، واختل النظام وتمرد الجنود على الضباط وهم هائجون منذ أمس يطلبون قتل الجنرال هيكس ، ونحن وسعادتلو محمد علاء الدين باشا نجهد فى إخفائه عنهم أنفةً من ان يقال أن الوفا من المصريين قتلوا رجلا أجنبيا بينهم لأسباب سياسية . وإننى أكتب هذه السطور والموت محدق بنا من كل جهة ولا أمل لنا فى الحياة إلى غد (الإثنين) إلا إذا لم يهاجمنا العدو . وجرعة الماء بيننا الآن أندر من الكبريت الأحمر . وقد كنت أود التطويل ولكن طرأ على ما اضطرنى إلى ترك الكتابة والتأهب للموت ومفارقة هذه الحياة . وأختم هذه النبذة بالأسف ليس على حياتى ، بل على ألوف من أبناء وطنى ماتوا

باستسلام حكومتهم إلى أعدائهم الإنكليز فوا أسفاه ثم وا أسفاه » !

وتنفس صبح الإثنين فأمّ المهدى جيشه ورفع بعد الصلاة حسامه وكبر ثلاثاً فاندفع جنوده نحو الجيش . ولم يمض غير قليل حتى أبيدت الحملة إلا بضع مئات منها . واستبسل كبار الضباط استبسالا عظيما وأبدوا شجاعة فائقة . وأقبل المهدى فى اليوم التالى إلى موضع المعركة وكلما دنا منها رفع صوته مبتهجاً « الله أكبر ... فتح ربى ونصر ! فيرددها من حوله بأصوات كهزيم الرعد ، ويكبر لتكبيرهم الأنصار المنتشرون داخل تلك الغابات والأحراش » .

ثم عاد المهـدى بجيشه إلى الأبيض فائزاً منصوراً فخرج أهلها لاستقباله والجموع الزاخرة تهلل وتكبر ، والفتيان والشيوخ والاماء والنساء يتزاحمون ويلقون بأنفسهم فى طريق سـيره وتحت أقدامه تبركا وتقديساً ، والأنصار والأحباب تملون بحميّا الفوز والانتصار .

إن بركات صاحب البركات تتجلى سافرة للعيان كل يوم ، فلم يَعد بعد معركة « شيكان » شك لمرتاب فى مهديته ورسالته . فمن آمن به من قبل فقد ثبت واطمأن قلبه ، ومن انضم إليه على دخْل وتربّص الدائرات به فقد زايله أمل التربص وحلول الدائرات . واشرأبت الأعناق وامتدت العيون من النيل الأبيض إلى البحر الأحمر ، ومن كردفان حتى حدود « وادّاى » تنتظر وثبة

أخرى من وثبات مهدى الله وخليفة رسـوله الذى أحدث عجائب الخوارق والـكرامات .

وما ذا بعد اليوم ، استسلمت دارفور واستسلم معها سلاطين بك (باشا) ، وألقت بحر الغزال السلاح وسلّم مديرها لبتون بك الانجليزى . وعثمان دقنه يثير قبائل البحر الأحمر على الحـكومة ويدعوها لمبايعته ، فيسقط سنكات، وينتصر فى آبار التيب وطماى بالقرب من سواكن ، ويكتب إليه المهدى من الأبيض يبلغه نهاية حملة هيكس « التى بلغـكم أنها حضرت إلينا من طريق الخرطوم فوصلتنا وحصل الظفر عليها بأمر الله تعالى ، وقتلناها عن آخرها شر قتلة بمـا فيها الرءوس الـكبار أحدهم علاء الدين الحـكمدار ، والثانى هيكس النصرانى ، والثالث حسين مظهر وغيرهم من الضـباط . والآن جميع مدافعهم وأسلحتهم بأيدينا وهى شىء كثير جداً . وكان هلا كهم فى يوم الإثنين ٤ من المحرم سنة ١٣٠١ هـ — ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٣ فانقرضوا فى أقل من ساعة، واشتعلت النار فى أجسامهم بأمر الله السماوى » .

وتوالت الحروب فى شرق السودان فهزم عثمان دقنه بيكر باشا مرة ثانية وثالثة فى التيب ، فسقطت طوكر ، واحتلت انجلترا سواكن واحتجت تركيا على ذلك الاحتلال فتعلل لورد دوفرين سفير انجلترا فى الأستانة — ٦ من مارس سنة ١٨٨٤ — « بأن الحوادث اضطرت الحـكومة البريطانية إلى اتخاذ بعض

الوسائل الوقتية لحماية ثغور البحر الأحمر ، ولـكنها عازمة عند ما تعود السكينة ألاّ تعمل شيئاً بغير مشورة الباب العالى » أترى عادت تلك السكينة ؟ وأين السكينة والاستقرار ؟

الثورة متاججة النيران فى كل مكان ، والأمصار تسقط فى قبضة المهدى واحدا بعد آخر . فالجزيرة ودنقلا ، وكسلا ، وبحر الغزال رفعت راية العصيان وشهرت السلاح . وتقدم الأمير كرغساوى الى اللّادو عاصمة خط الاستواء ، وهزم أمين باشا مديرها ، ثم قفل راجعاً إلى بحر الغزال ليعيد الـكرة على خط الاستواء ، فأمهله المهدى أمرها حتى يستولى على الخرطوم ، فيقطع بذلك خط المدد على كل من يحاول نجدتها و إنقاذها .

أصبح استيلاء المهدى على السودان كله مسألة وقت بعد تلك الانتصارات العظيمة المتوالية ، وكانت كارثة جيش هيكس حديث السودان والعالم الإسلامى بأسره الذى سمع من أنباء مهدى السودان كثر أقاصيص الخوارق والـكرامات . فأقبلت الوفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارته والتبرك برؤيته والانضمام إلى عداد جنوده . وكان المهدى فى غضون إقامته بالأبيض يكاتب عماله فى أطراف البلاد القريبة منه ليمدوه بالمقاتلة والجنود ، حتى اجتمع حوله من الأعراب عدد لا حصر له وكلهم لا يطلبون غير الشهادة والانتظام فى سلك المجاهدين فى سبيل الله .

فلما شحّت مياه الآبار فى الأبيض ، رحل المهدى بأنصاره إلى الرهد ، حيث الماء وفر والمحل خصيب . فاذا أضحت الشمس أو تمايلت للدّلوك استظل المهدى بدوحة وارفة مهدلة الأغصان كثيفة الظل يعظ عقب كل صلاة أحبابه وأنصاره « ويحثهم على أمرين الجهاد فى سبيل الله ، والطاعة العمياء للمهدى خليفة رسول الله ، فبلغت الحميّة الدينية مبلغاً لا يتصوره خيال متخيل بين أتباع المهدى لا فرق بين ذكر وأنثى وشيخ وشاب . وكان منتهى أمانيهم الشهادة وحدها . حتى أصبح الأب يدعو لابنه بها ، وحتى أصبح أهل الشهيد يقيمون ليالى الأفراح ويجىء الناس لتهنئتهم بفوز ميتهم فوزاً عظيما ، ويشربون المرطبات ويأكلون الحلوى وهم يقرأون « ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

والمهدى بين هذه الشؤون وتلك ، يوطد كل يوم أسس تعاليمه ودعائمها مجتهداً مجدداً لا يتقيد بغير منصوص الكتاب والسنة والاستخراج منهما والنظر الصحيح الذى يساير المنطق السديد . وهو أيضاً يفرض فيما يفرضه ، تعاليمه الاجتماعية القائمة على الزهد والتقشف والفراغ من الدنيا والإقبال على ما عند الله من حسن الجزاء والثواب والتطلع إلى الجهاد والاستشهاد ـ تعاليم دقيقة شديدة كتعاليم وهابيّ جزيرة العرب وكتعاليم أطهار كرومول ، بناها على

ما أبصر ولمس يوم قام بجولاته ورحلاته فى أنحاء السودان ، فشاهد إفساد الترف والبذخ والتكالب على اللذات للنفوس والقلوب . أذكر المهدى يوم وضع تلك التعاليم الحازمة وفرضها عنوة على أحبابه وأنصاره وقفته تلك بباب أستاذه محمد شريف يوم احتفل بختان ابنه ؟ فندد التلميذ بخروج الصوفى الكبير وامام الطريق على تعاليم الإسلام، فأقصاه من عداد تلاميذه ، فأدخله فى عداد الحواريين والمصلحين ، ودفع به إلى غاره فى جزيرة أبا وإلى تأملاته وقيامه وصيامه فتفتحت له من أبواب المشاهدة والروحانيات ما وصل به إلى هذا المكان المرقوم والوقفة الفريدة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ السودان.؟ لقد كانت تلك الوقفة من أعظم الفترات التى تمر مثيلاتها بتاريخ الأفراد فتؤثر فى تاريخ البلاد وقد تؤثر فى تاريخ العالم . إنه اليوم بين أصحابه أملا ساميا ونور هدى لا يدانيه نور « فكل شىء سيكون فى القريب العاجل جديداً عجيباً مبايناً لما كان عليه بالأمس ، ولا سيما حينما يستولى الأنصار على الخرطوم والقاهرة » فأى أمل وأى رجاء ؟

إن الأسرى والسبايا والغنائم تتدفق على معسكرات المهدى من كل مكان ، والمهدى ينظر إليهم نظرة المارقين على تعاليم الإسلام والخارجين على دعوته . ألم يحكموا بغير ما أنزلَ الله فى كتابه وساروا على غير ما نهج النبى فى سنّته ؟ « وأولئك هم الكافرون » . ألم يستحلوا المحرمات ويبيحوا المنكرات

ويتكالبوا على الدنيا ومباهجها والشهوات ومفاسدها ؟ انهم قوم لا إيمان لهم. وانه ليعرض عليهم الاسلام والإيمان بدعوته ، فمن قبلها دخل فى عداد أنصاره وأحبابه ، ومن أباها وحارب المهدى فوقع فى أسره وأسر قواده ، كان سبىّ حرب دينية ، ماله ونساؤه وإماؤه حلٌّ للمهاجرين والأنصار والأحباب والإخوان . هذا هو التعليل الذى يمكن به فهم تعدد أزواج المهدى وكثرتهن. فقد كنّ جميعاً غير الشرعيات منهنّ وهنّ أربعة ، سبيّات حرب دينية ودعوة إسلامية ، دخلن جهاداً فى عداد الإماء والسرارى نخضعن فى معاملتهن لما خضعت إليه مثيلاتهنّ فى الحروب الدينية . أغبار على المهدى فى ذلك التعدد ؟

الأسرى خلق كثير ممن عارضوا المهدى وكذبوه ورموه بالترهات . فهذا سلاطين بك (باشا) مدير دارفور أصبح بعد إسلامه عبد القادر صلاح الدين، يجلس أمام المهدى تحت تلك الدوحة واضعاً يده فى يده ليبايعه بيعة الأنصار ويعاهده على الجهاد معه فى « شأن الله ورسوله » والذود عنه بالروح والحسام. ومن غير سلاطين وحكام الأقاليم والمديريات التى استسلمت خلق كثير من الأجانب والوطنيين مصريين وسودانيين ، وقعوا جميعاً فى الأسر ودخلوا فى الاسلام وأصبحوا من المجاهدين فى جيش الإمام .

وفى الأسرى الأب بونومى ، والأب لويجى ، والأب أورقالدر وراهبات

إرسالية جبال النوبة ، سيقوا الى المهدى فى الأُبَيّض فأوصى بهم خيراً كما أوصت بهم تعاليم الاسلام ، وصحبوه فى زحفه على الخرطوم ونزلوا فيمن نزل معه بالرّهد . إن المهدى فى جلسته تلك تحت الدوحة الفينانة يبعث عصر يوم إلى الأب أورڤالدر ليحادثه فيما ورد فى الكتاب المقدس من آيات وعلامات وحكَم بالغات ، والأب الكاثوليكى المبشر يعجب فى قرارة نفسه بعلم المهدى وسعة اطلاعه . وتنازعه فى طوايا قلبه القصيّة نوازع الثورة والتمرد والحقد والكراهية على ذلك « السحر الذى غمره به المهدى ، والرفق الذى أبداه له ، والقداسة المُشِعّة من ذلك الوجه الباسم أمامه » . وسرت فى الأب هزة فزع أثارت فيه خيالات أقاصيص الاستشهاد التى تعرّض لها رجال الدين وأبطال الكنيسة فى مختلف حقب التاريخ ، وحسب أن ساعة الاستشهاد قد دنت ، فلن يتوانى فى الإقدام عليها قريراً ناعم البال ، وارتقب أن يطلب المهدى منه كما طلب من غيره من الأجانب المسيحيين غير رجال الدين منهم الدخول فى الاسلام . ولكن المهدى حدّثه عما فرضه الاسلام من رعاية القسيسين والرهبان وما أحاطهم به من حماية وترفّق واهتمام ، حتى لكأنه استشف ما جال بخاطر الأب القس ، فأدخل على نفسه السكينة والاطمئنان. وأوكل بهم من أحبابه الأقربين من يرعى شؤون الآباء المبشرين ويسهر على المحافظة عليهم . ان الأنصار ليذكرون والآباء الرهبان يذكرون أن

راهبات إرسالية جبال النوبة قد وضعن فى رعاية أحد الأمراء من قواد الجيش فحفظن بين نسائه ، ولكنهنّ ذقن المضاضة وعرفن الاذلال وقسوة المعاملة، فانفلتت إحداهنّ يوماً الى دار المهدي وشكت إليه أمرها وأرته آثار الضرب فى قدميها ، فأخذ دهشاً واعتذر أسفاً وأسكن طائرها ، وأفهمها أنه لم يأمر بغير رحمتهن وحسن معاملتهن وجميل رعايتهنّ . ثم جىء بهن فى اليوم التالى ليعشن بين نسائه وأبنائه ، « ومنذ ذلك اليوم نعمن بالا ، وسعدن حالاً » . .

كل ذلك ليضرب لأصحابه مثلاً جميلاً فى حسن معاملة الأسرى والعطف على الأجانب الأغيار عن الاسلام حتى لا يفتكوا بهم ويسوموهم الخسف وسوء العذاب . فعمله وقدوته أفعل فى نفوس أحبابه وأنصاره المتلهبين غيرةً وحماساً من كل وعظ وإرشاد ، وكانت كلماته ورغبته السنة المتبعة والقانون السائد .

وأقبل على المهدى فيمن أقبل أستاذه الأول محمد الخير الذى لم ينس لتلميذه القديم صلاحه وعلمه وذكاءه ، والذى كان يذكره دوماً بكل خير ويدعو له بالفلاح ، والذى يوم شهر دعوته وكذبه الناس ورموه بالدجل والشعوذة قال لهم : « إن من لا يكذب على الأسماك لا يكذب على الله ورسوله » يشير بذلك الى حياة شبابه الأول يوم كان يحتطب أو يحرث

الأرض أو يصطاد أسماك النيل ليقتات منها و يواصل درسه وتصوفه وعبادته وهو يطلب العلم عنده فى الغُبش . فخرج المهدى لملاقاة أستاذه وبالغ فى إكرامه ، ثم أسند إليه « الإمارة على بربر ودنقلا ، وعهد إليه بنشر دعوته فى هاتين المقاطعتين ، ومنحه امتيازات كثيرة ، وتنازل له عن بعض الشؤون التى اختص بها وحده، وأمره بمبايعة الناس نيابة عنه على مقتضى بيعته العامة، وأذن له باستخراج الأحكام من المذاهب الأربعة » .

ووفد عليه بعد أن زايل الرهد ونزل بشات ، شيخه محمد شريف نور الدائم مسلماً طائعاً مستغفراً ، فنسى له قديم ما نشب بينهما من خلاف ، وذكر له حقه عليه واستقبله أجمل استقبال ، وأمر بذبح النياق احتفالاً بمقدمه و بقى فى صحبته مكرماً معزّزاً غير مهان أو مُساء الى أن مات المهدى

لقد اكتمل للمهدى من أسباب القوة كل شىء . جيش جرّار ، وأنصار أغيار ، ودعوة ملأت الآفاق، ووفود تقبل عليه من شتى أنحاء العالم الاسلامى، وجنود يتشوّقون الى الموت والاستشهاد . فإلى أين إذن ؟ الى الخرطوم ، الى غردون .

٤

الخرطوم والهة ثكلى بعد أن ترامت إليها أنباء الهزائم المتوالية التى حاقت بجيوش الحكومة فى الأُبَيّض وشيكان ، وعويل النائحات النادبات يرتفع من كل دار بعد أن أدخل الموت الفجيعة والحزن فى قلوب من فقدوا الأزواج والأبناء والآباء . والعاصمة فى هذا الثكل العميق يهزها فزع جيش المهدى الزاحف عليها، ومتطاير الاشاعات التى بلبلت الخواطر والألباب

أحقًا ما ترامى الى الأسماع بأن الحكومة المصرية بعد كارثة هيكس باشا قررت إخلاء السودان ؟ أتفعل مصر ذلك راضية وعن طيب خاطر فتقطع أوصال امبراطورية وادى النيل العظيمة التى شملت لأول مرة فى تاريخ الوجود ضمن ما شملته ، وادى النيل من مصبه الى منبعه فى خط الاستواء البعيد ؟ فتحققت بذلك وحدة الوادى كاملة ، وأفلحت مصر فى بدء تاريخها الحديث فيما لم يفلح فى تحقيقه الفراعنة الأقدمون ، والفرس الغازون ، واليونان المتمصرون ، والرومان المحتلون ، والعرب المندمجون ، فتمثلت بذلك حكمة

الخالق أروع تمثيل ؟ أتتجهم مصر لماضيها المجيد وتتنكر لمستقبلها القريب البعيد ، وتزهد مختارة فيما بذلت من جهود ، وصرفت من أموال ، وضحّت من مُهج وأرواح ؟ أأصاب ساستها يومذاك خبل الغفلة أم حاق بهم مسٌّ من الضعف والوهن والاستسلام شديد ؟

وتطايرت إشاعات أخرى الى الخرطوم فعلم أهل العاصمة بطلائع ليل ، أن الأنباء التى حملها البرق صحيحة وأن وزارة شريف باشا معارضة فى الإخلاء. فماجت العاصمة على ما بها من ثكل وضرّ تحمل المشاعيل كأنما تنير بها ليل الباطل والأراجيف ، « واحتشد الناس حول سراى الحكمدارية يهتفون : « ليحيا شريف باشا » . أيعيد التاريخ نفسه فيتظاهر أهل العاصمة مرتين للاخلاء أولاهما فى سنة ١٨٨٤ وثانيتهما فى سنة ١٩٢٤ ؟ عجيب أمر هذا التوافق الزمنى فى تاريخ السودان ! !

ان حكومة جلادستون تتبع حيال الحكومة المصرية سياسة « النصائح » ، أفيقرها على ذلك شريف باشا ويرضى نزولا على تلك الارشادات والنصائح أن يُخلى السودان ؟ لم يرض شريف باشا تلبية ما طلب منه ، ولكن اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا يرى « أنه من الواجب ما دام الاحتلال البريطانى المؤقت قائماً فى مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى إسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى

تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها للخطر . ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بيّنة من أن المسؤولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى أن تصرّ على اتباع السياسة التى تراها .

ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقاً لهذه السياسة . وان حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين ـ سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة ـ من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها إليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » .

رفض شريف باشا الوطنى اتباع تلك النصائح و إخلاء السودان وسحب الحاميات المصرية من ربوعه و إقامة حكام من أهله على أقاليمه المختلفة ، ليحاربوا بعضهم بعضا ويعودوا القهقرى إلى عهد التقاتل والصراع . فوقف من تاريخ وادى النيل وقفة مشهودة له فى صحائف تاريخه ، قرر فيها مبدأ عاما لن يحيد عنه ساسة وادى النيل المُخلّص الشرفاء قيد أنملة ، فوضع لهم فى قولته تلك بعد استقالته « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » برنامج ساسة مصر المخلصين الشرفاء حيال السودان ، وبرنامج ساسة السودان المخلصين الشرفاء حيال مصر ، وبرنامج يقبله آخر الأمر ـ طال الأمد أم قصر ـ الساسة غير المصريين وغير السودانيين الذين يريدون أن يبدّلوا خلق

الله وصنعه، ومقاومة الطبيعة السرمدية وقانونها . ولن تجد لسنّة الله ولن تجد لقوانينه تبديلا. لقد ركّز شريف فى كلماته الست تلك، برنامج الماضى والحاضر والمستقبل لوادى النيل .

وقبل نوبار بعد شريف تشكيل الوزارة فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ ، كما قبل إخلاء السودان ونزل عند إرادة تلك النصائح السديدة . أليست حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من هم على استعداد لتنفيذ النصح السديد ؟ ولكن نوبار ما شأنه وشأن وادى النيل ؟ لا يحس إحساس أبنائه ولا يهيم بما يهيمون به ولا يتطلع إلى ما يتطلعون إليه فى طوايا المستقبل السحيق . إنه غريب عن النيل دماً ومعتقداً وتاريخاً ومصلحة وأملا . وويل للقريب من الغريب .

والخرطوم مائجة متظاهرة مثلما تظاهرت منذ ليال قلائل ، ولكن أهلها يهتفون اليوم بنقيض هتافهم الأول يهزهم حزن وأى حزن عميق .

وارتقب رئيس الوزارة الجديد ينتظر وحى النصح للموافقة على تعيين من يقوم بمهمة الإخلاء « وإرجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار إلى مصر ، وذلك مع حفظ النظام فى البلاد باعادتها إلى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصرى » فياله من تناقض غريب . أيُحفظ النظام بغير جند ؟ وكيف تحل معضلة تنصيب سلاطين من سلالة الملوك الأقدمين بعد أن دوّخ المدى

الأصقاع ودانت له سلالة الملوك الذاهبين ؟ ثم أية سلطة بقيت لسلالة الملوك الأولين بعد السلطة التى أحرزها المهدى فى البلاد فملك زمام أمورها . وأين الشخصية الباهرة اللامعة التى تجمع حولها أولئك الملوك لتقف موقف الند المنافس للمهدى ؟ انه لضرب من المستحيل .

لم تكن مسألة السودان محل اهتمام مصر وحدها فى ذلك الحين بل إنها شغلت عقول الناس فى انجلترا ، فأثارتها الصحف الإنكليزية بعد كارثة هيكس وتناولتها بشدة وعنف . ثم أجمعت رأيها على ترشيح الجنرال غوردون للذهاب إلى الخرطوم والقيام بمهمة الإخلاء لسابق معرفته بالبلاد . وعددت مآثره الماضية فى القرم ، وفى الصين ، وفى السودان ، وأشادت بذكر مناقبه ، ونوهت بما بذله من مجهود عظيم فى مكافحة تجارة الرقيق ، وما قام به من أعمال يوم أصبح حاكما عاما للسودان . ونزلت وزارة الخارجية البريطانية على هذه الرغبة ، واتصلت بغوردون فوافق على الذهاب إلى السودان ، وأصدر مجلس الوزراء البريطانى فى ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ بلاغا رسميا « عُهد فيه بمهمة الجلاء عن السودان إلى الجنرال غوردون ، وأنه سيكون ممثلا للحكومة الإنكليزية فى الخرطوم » ، فلما وصل القاهرة يصحبه الكولونل ستيورات الذى كان فى السودان منذ عام ليكتب تقريراً عن أحواله رفعه إلى الحكومة البريطانية ، طلب السير إيفلن بيرنج (لورد كرومر) من الخديو تعيين غوردون حاكما عاما

للسودان . ومنـذ ذلك اليوم « فُوضت الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (بحاكم عام السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى، بناء على طلب حكومة جلالة الملـكة ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى، يصدر برضاء الحـكومة البريطانية[1] » .

والتقى غوردون بنوبار ، ووقف الزمن بينهما يعيد توافقه العجيب . فنوبار هو الذى التقى به فى ذلك المؤتمر الذى عقد فى اسطنبول لبحث شؤون الملاحة فى نهر الدانوب ، وكان ممثلا للحكومة البريطانية فيه . أشاء القدر أن تـكون حياة غوردون متصلة بشؤون الأنهار ، ومكافحة الأطهار ، ودائرة الاستعباد والاسترقاق ؟ فعرض عليه نوبار العمل فى السودان للقضاء على تجارة الرقيق فى المديريات الاستوائية فى سنة ١٨٧٤ فقبل ، وناهضها ثلاث سنوات بقى بعدها ثلاثاً أخرى حاكما عاما يدير شؤون البلاد كلها ، ولـكن ذلك برغبة خديو مصر لا بناء على طلب حكومة جلالة الملـكة . وها هو اليوم يلتقى به مرة أخرى ، ليرجـع إلى تلك الأرجاء التى دفعه إليها أول الأمر ، حاكما عاما بموافقة خديو مصر، بناء على طلب حكومة جلالة الملـكة .

إنه لتوافق عكسى عجيب . لقد قفل غوردون بعد ست سنين من مقابلة

---

(١) المادة الثالثة من اتفاقية سنة ١٨٩٩ .

نوبار الأولى بعيد الصيت نابه الذكر ، أما اليوم فلا عودة ولا رجوع ، بل ذكرى فى ذمة التاريخ .....

وضع غوردون قبل أن يبارح القاهرة تقريراً عن مهمته ومقترحاته ، متمشية كلها مع السياسة التى عهد إليه بتنفيذها قبل مزايلته لندن ، ووافقه الكولونل ستيوارت ووافقت حكومة جلالة الملكة عليه وأيده جلادستون فى مجلس العموم ، وبذلك وضعت أسس السياسة البريطانية حيال السودان

وترك غوردون القاهرة ميمما الجنوب فلما بلغ كوروسكو بعث بكتاب إلى مدير بربر ليرسله بدوره إلى المهدى مع رسول خاص وهدية خاصة ، هى جبة جوخ وقفطان حرير أحمران ومركوب أحمر وشال من الكشمير ، لاتعدو أن تكون كالهدايا التى تمنح إلى مشايخ القبائل ، وذكر له فى كتابه « أن حكومة جلالة الملكة قد عينته والياً عاماً على السودان ، واعترفت باستقلال البلاد وفصلها عن الحكومة الخديوية فصلا نهائياً ، كما اعترفت لعظمة السيد محمد أحمد بالسيادة على السودان الغربى وتلقيبه بسلطان السودان الغربى .

وطلب من سلطان الغرب مساعدته على إخماد نيران الثورة فى السودان الشرقى ، وفتح طريق سواكن لسفر الحجاج ، وأكد له أنه لا يقصد من وراء كل ما ذكره إليه ، سوى حقن دماء المسلمين » .

وصل غوردون إلى بربر ومن حولها الثورة تجيش خفاء وتتأهب للوثوب فجأة . فوقف خطيباً فى العمد والأعيان يعلن طلوع عهده الجديد على البلاد ، وفاتته مداورة السياسى الحاذق الذى يداخل الأمور ويخارجها ، فصرح بما لا يجب التصريح به، فأجج النار وزاد اللهيب اشتعالا . ثم اختار اثنى عشر رجلا ليشكلوا مجلس قضاء يجلس مرتين فى الأسبوع ، وأمر المدير ألا ينفذ أو يتصرف فى شىء ما إلا بعد موافقة ذلك المجلس . أتلك نواة المحاكم القروية ومجالس الشورى والمديريات فى البلاد ؟

فما ذا ينتظر المترددون الذين كانوا يأملون فى غوث الحكومة بعد ذلك البيان الصريح، وبعد قرار الحكومة على ترك البلاد وشأنها . إنهم إن بقوا حيث هم تخطفتهم رماح أنصار المهدى وسيوفهم ، وإن انضموا إليه قبل أن تسقط البلاد فى قبضته فقد نجوا من الحتوف والدمار . فأضمر الحاضرون من السراة والأعيان اتباع أيسر السبل وأسلمها إلى بيعة المهدى والانضمام إليه، فراراً بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم من بطش جيوشه المكتسحة ، التى لا تقف أمامها فى ميادين القتال جيوش ، إلا ريثما تتوسد الثرى أو تلوذ بأكناف الفرار ...

* * *

وبلغ غوردون الخرطوم فانطلقت المدافع تحيى الحكمدار الجديد القديم .

وتقدّم إليه جمع من قناصل الدول والموظفين والأعيان فقدم إليهم بدوره سياسته واضحة صريحة ، وأعلن أخرى بعد قراءة فرمان توليته ما انطوت عليه غاياته ومقاصده فقال : « إن السودان قد فصل عن مصر فصلا تاماً ، وقد جئتكم حاكما مفوضاً عاما عليه ، فجعلت محمد أحمد سلطانا على كردفان ، وألغيت الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق ، وأغضيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ ، وعن ضرائب سنتين فى المستقبل . وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه » .

ثم أمر فجمعت سجلات الضرائب على الأطيان فى ساحة عامة ووضعت فوقها السياط وآلات التعذيب وأضرمت فيها النيران . وطاف بالسجون فأطلق سراح الجميع ما عدا القتلة ، ومضى فتفقد الحصون وخطوط القتال التى أقامها عبد القادر باشا حلمى حول الخرطوم فسر منها سروراً بالغا ، ونظم بعد ذلك القوات وأخذ فى تنفيذ سياسة الإخلاء ، وانتظر يرتقب ما تأتى به الأيام .

***

كان شعار غوردون فى سياسته الجديدة كما يقول مؤرخه بولجر « السودان للسودانيين[1] » ، فأخذ فى توليتهم المناصب الكبرى فى الإدارة والجيش ، وعين فيمن عينهم لتلك المناصب ، الشيخ عوض الكريم أبا سن مديراً للخرطوم ،

(١) راجع كتاب بولجر « حياة الجنرال غوردون » ص ٢٩٥ طبعة والتر سكوت .

وفرج باشا الزينى ، والسعيد باشا الجميعابى ، وحسين باشا ابراهيم الشلالى قواداً فى الجيش ، وقد قتل الأخيران بأمر من غوردون بعد أن تواطأ مع أنصار المهدى فى واقعة الشرق (الخرطوم بحرى) ، وأنشأ مجلسا استشاريا فى يوم وصوله إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ ، وهو أول مجلس استشارى للبلاد ، ثم ألغاه بعد واقعة الشرق .

دفعت السياسة التى أعلنها غوردون الناس إلى التفكير فى مصيرهم ، فالمهدى قد أصبح فعلا المالك المتسيطر على البلاد ، ولن تستطيع أية قوة من الخارج أن تقضى على نفوذه الذى تغلغل فى كل قلب وفى كل مكان . فأخذوا يهاجرون إليه أو إلى أمرائه أو يتراسلون معه سراً وجهراً . فلم تجد سياسة « السودان للسودانيين » نفعا . والمهدى لن يحتفل بلقب ، ولن يغترّ بعرض من عروض الحكومة التى جرد سيفه لقتالها ، والتى هزم جيوشها جيشا جيشا ...

وهل تسكن خواطر الناس أو تغريهم إباحة تجارة الرقيق و إعادتها سيرتها الأولى ؟ عجيب هذا الموقف ! ألم يُعين غوردون من قبل حاكما عاما للمناطق الاستوائية لمكافحة تلك التجارة البشرية البغيضة ؟ وهل يعود نفع إباحتها من جديد إلا على نفر قليل من التجار لا يهمهم من أمر البلاد ومستقبلها شيئا ، بل جل همهم أن يثروا وأن تبسم لهم الحياة فينعموا بمباهجها ولذاتها ؟

أيسالم غوردون فكرة كان يشن عليها بالأمس حربا عوانا ؟ إن العقل ليحار في هذا التناقض الفريد .

ارتاعت انجلترا كلها لهذا النبأ الأخير ، ونشطت جمعية مكافحة الرقيق وطلبت المعارضة في مجلس العموم البريطاني بيانا من الوزارة عن هذا الرأى الذى أعلنه غوردون في خطبه ومنشوراته في السودان ، ولكن الوزارة وأصدقاء غوردون وقفوا بجانبه ودافعوا عن سياسته ، وردوها إلى مقتضيات الموقف ، والنزول على حكم الظروف المحلية، وما تتطلبه من حلول سريعة تتفق وطبيعتها، فمرت العاصفة بسلام .

انتظر غوردون رد المهدى على رسالته وهديته ، وقد أمر وهو في كوروسكو « أن يقابل سفراء سلطان الغرب حين حضورهم باستقبال ودى حافل كما يقابل عظماء الملوك والأمراء ، ويجب أن تزيّن لهم المدينة ثلاثة أيام » أما المهدى فقد جمع حين تسلم كتاب الحكمدار وهديته أمراءه وأهل مشورته وقرأ عليهم الكتاب ورده ، ثم استفسر عن رجلين من أنصاره وأحبابه يبيعان حياتهما من الله تعالى ، ويذهبان بكتابه وهديته الي غوردون « ولا يغمدان سيفيهما حتى يدخلا بهما عليه، ويسلماه الكتاب، ولا يذوقان طعاما ولا شرابا، وينصحان له ويعظانه بالإقلاع عن خطته، ويملآن أذنيه وعيداً وقلبه رعباً ، فاذا قتلهما فاني كفيل لهما بأن الله يلحقهما بالشهداء والصالحين وحسن أولئك

رفيقاً » فبرز له خلق كثير وهم يبكون شوقاً الى الشهادة ، ثم انضم إليهم غيرهم وغيرهم ألوف مؤلفة، فاقترع على رجلين ومضيا حتى بلغا مدينة الخرطوم ووقفا على أسوارها وسيفاهما مسلولان، فلما دنيا من باب غوردون اعترضهما الحرس وطلب منهما أن يغمدا سيفيهما و يسلما أسلحتهما فأبيا ، وألح عليهما فقالا : «إما الرجوع من حيث جئنا و إما الموت» . فأبلغ غوردون ما قالاه ، فأمر بإدخالهما كما هما ، فاستقبلهما واقفاً متقلداً سيفه ومسدسه . فسلماه الكتاب وهدية من ثياب الدراويش والأنصار، هى الجبة المرقعة والسروال ومنطقة خوص النخل وحذاء وعمامة وطاقية وسبحة ، ثم أخذا فى نصحه ودعوته الى الإسلام ، فلم يعرهما بالاً . وأمر فقرئ عليه كتاب المهدى « الى عزيز بريطانيا والخديوية غوردون باشا . قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه ، والحال أنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، واتصال المودة فيما بيننا و بينكم ، وأن تجعلنا سلطاناً على كردفان ، فأقول والأمر لله، انى قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم ، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ، و يعملوا بما يصلحهم فى آخرتهم ، وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا بجزيرة ابا بدعايته الى الحق ، و بأن مهديتى من الله ورسوله .

ولست فى ذلك بِمُتَحَيِّلٍ ولا بمريد ملكاً ، ولا جاهاً ، ولا مالاً و إنما

أنا عبد أحب المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين ، لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهـذا هو الذى صدّهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفانى وتركوا الباقى ، واشتغلوا بمـالا يكون من الفانيات ، ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يُغن عنهم ذلك شيئاً ، وتندّموا على قدر الذى تمتعوا به ، فأيّدنى الله تعالى بالمهدية الـكبرى لدلالتهم الى الله تعالى ، وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ، ولا عَرَّفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضاء الله ويكون له نصيب فى الآخرة . وقد قال المسيح عليه السلام : « يامعشر الحواريين ابنوا على موج البحر داراً تلـكم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً . ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور » ، فـكذلك من ظنّ أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن . فأنِب إلى الله البـاقى واخضع لجلاله ، واطلب عز الآخرة ، ولا تظن أن هـذه الدنيا داراً حتى تسعى لملـكها وعزها ... ...

وغاية ما نسعى إليه هو أن نجدد لهذه الأمة ما اندرس من معالم دينها ، فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة ، نتخذك وليًّا وتكون من إخواننا ، فتكون المودة المطلوبة عند الله

ورسوله ، وتكون ممن امتثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة فى قوله تعالى : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أُنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» الآية . فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا وبينك ، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل ، وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد ، عيسى وموسى وجميع الرسل والنبيين ، وحزت الخير الأبدى . . . . . واعلم أنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا حاجة لى بالسلطنة ، ولا بملك كردفان ولا غيرها ، ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها . وإنما أنا عبد لله دالّ الى الله والى ما عنده . فمن كان سعيداً أجابنى واتبعنى ، ومن كان شقيًّا أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضعه ، وأذلّه وعذبه عذاب الأبد . . . . .

وأما فتح طريق الحج فإنه خديعة منك وتظاهر بحماية الدين الاسلامى مع أنك لا تؤمن بحرف مما جاء فى هذا الدين . وإنك لمن معشر عرفوا بعدائه وكرهه . فان كنت ممن يشفق على المسلمين ، فأولى بك أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها ، وتحملها على اتباع الدين الحق . . . . . .

أما هديتك فلدينا مثلها كثير ، ولكن أعرضنا عنها طلباً لما عند الله من حسن الثواب . وإنى أقول لك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها ،

« أتمدوننى بمال ! فما آتانى الله خير مما آتيكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

واعلم أنك إن أتيتنا مسلما نربيك ونُرِيكَ من النور مايطمئن به قلبك، ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاحا للمسلمين، ولّيناك كما فعلنا ذلك مع غيرك من الحكام السابقين » !

وترجم الخطاب فانفجر غضب غوردون ، وألقى بهديته أرضًا وحرقًا . ثم أوعز فكُتب الى المهدى « من غوردون باشا والى السودان الى محمد احمد المتمهدى » كتابا كله قدح وثلب ، ووعيد وتهديد .

« وها أنا مستعد لقدومك ومعى رجال أقطع بهم أنفاسك . والعاقل من تدبر والسلام » . وجمع غوردون العلماء الرسميين فأفتوا ببطلان دعوة المهدى ، وحكموا بتكذيبه . ودفع والى السودان كتابه والفتوى الى رسولى المهدى .

ثم بدأ بعد ذلك فى تنظيم قواته ، وتعزيز استحكاماته وقلاعه ، وتحصين السفن التجارية النيلية . وأخذ الصوفى يتأهب للقاء الصوفى ولكن لأى لقاء. حارب غوردون متصوفاً فى الصين ، فأبلى فى مكافحته بلاء حسنًا وانتصر عليه ، حتى لقّب « بغوردون الصينى » إعظامًا لقدره و بسالته . ولكنه اليوم

امام صوفى من طراز آخر « يحب المسكنة والمساكين ويكره الفخر وتيه السلاطين » . لم يبن قصوراً وأبراجا كما بناها « هونج تسو شونج » مهدى الصين ولم يدع أنه « امبراطور السلام الأكبر » أو « الملك السماوى » ولكنه المهدى المنتظر ، وغوردون نفسه صوفى متبتّل كالمهدى ، لا يفارقه إنجيله ولا ينقطع تفكيره فى الله ، ولا يكف عن التأمل فيما ورد فى الكتاب المقدس . ان شقيقته وأصدقاءه ورجال الدين ومن اتصلوا جميعا به، يعلمون فيه هذه الناحية الصوفية العميقة، التى ملكت عليه مشاعره وتأملاته .

* * *

تبيّن لغوردون وسط هذه الغمرة أن الجلاء عسير ، وأنه إذا ترك السودان لأهله فإنهم سيلتفّون حول المهدى ويعظم الخطر الذى أغفله الساسة فى حكمهم على الموقف كله من وراء مكاتبهم ، وبين سطور أوراقهم وتقاريرهم . فبعث يطلب من مصر توكيداً لسياسته السالفة .

١ — « ارسال الزبير باشا ، وجعله حاكما عامًّا على السودان .

٢ — أن يمنح الحرية المطلقة فى إدارة الشؤون الملكية والعسكرية ، فيولى من يشاء ويعزل من يشاء ، وينظم المالية والترسانة والضرائب ودخل الحكومة وخرجها .

٣ — أن يعطى السلطة لمنح رتب عسكرية وملكية الى رتبة أميرالاى، على أن يطلب عرائضها من خديو مصر .

٤ — أن تجعل له الحكومة المصرية إعانة سنوية قدرها مليونان ونصف مليون جنيه ، لمدة سنتين .

٥ — أن يُترك جميع ما للحكومة فى السودان من الأسلحة والذخائر والوابورات .

٦ — أن تساعده القوات الانجليزية على رفع الحصار عن الخرطوم وسنار وسواكن .

٧ — أن يشمل السودان جميع بلاد سواكن والقضارف وكسلا والقلابات وسنار والخرطوم و بربر ودنقلا حتى الخندق .

أما مصوع وسنهيت فتفصلان عن السودان . وأما بحر الغزال وخط الاستواء — وهما جنوبى السودان — فتُخليان .

٨ — أن يُنشأ جمرك فى سواكن ويضم دخله الى مالية السودان ، أما فى الخندق — فى شمال السودان — فلا يكون جمرك ، بل تعفى الضرائب الصادرة والواردة من الرسوم .

٩ — أن تبقى تجارة الرقيق ممنوعة بمقتضى الاتفاق الذى أبرمته انجلترا مع مصر » .

وتدور عجلة الأيام مسرعة ، فينساب الزمن فى سنة ١٨٩٩ ، ثم ينساب فى سنة ١٩٢٤ ، ثم يمتد فى سنة ١٩٣٦ ، ثم يمتد أخرى فى منتصف مايو سنة ١٩٤٤ فاذا اتفاقية ، وأحداث، ومعاهدة ، ومجلس استشارى، لا تخرج كلها فى مواثيقها ، وأسسها ، وتفاصيلها ، ونظامها ، عما طلبه غوردون منذ ستين عاما .

ويُرفض طلب غوردون، ويعاودوا الإلحاح فى إرسال الزبير الى الخرطوم ويعينه غوردون نائبا له، ويبرقه بذلك والزبير فى مصر ، وتذهب تلك المطالب كلها أدراج الرياح . ويطلب مرة ومرة مددا فلا يجاب له طلب كَأَنَّ الرفض سياسة موضوعة ، وقصدا مقصودا .

وتزحف جيوش المهدى على الخرطوم من الشرق ، ويستولى محمد الخير أستاذ المهدى السابق على بربر، فيقطع خط الرجعة ويسد طريق الاتصال . وترتفع نيران الثورة فى دنقلا ، ويمتد لظاها الى سنار ، وتقترب الجيوش الزاحفة مطبقة على العاصمة من كل صوب ، وتشتد الضائقة بالمحاصرين ، ويتسرّب الفارّون خلسة الى المهدى أو الى أمرائه .

ويكتب غوردون فى منتصف مارس إلى شقيقته يطمئنها « بأن كل شىء على ما يرام ، ونستطيع باذن الله أن نبقى عدة شهور » ثم يدوّن فى مذكراته « لقد وضعت نفسى فى مأزق حرجة فعلام إذن كل هذا ؟ إنى مبلبل الخاطر،

وأعتقد أن الطموح هو الذى طوّح بى إلى هنا ، إلى هذا الدمار . إن الثواب لم يجعل لتحقيق أغراض الحياة الفانية . فان تبدد كل شىء هنا ، فانه تعالى — ولا كفران به — لهو الحق ، وإنه لمنفذ لحكمته الإلهية الكبرى » .

وتنشر الحكومة البريطانية فى أوائل مايو كتابا أزرق فيه تلغراف من غوردون إلى سير أفيلن بيرنج يقول له فيه : « لقد أوضحتم نيتكم فى عدم إرسال أى مدد إلى هنا أو إلى بربر ، ومنعتم عنى إرسال الزبير ، وإنى أعد نفسى حراً فى أن أتصرف وفق الظروف . وسأقاوم هنا أطول مدة أستطيعها . فاذا كان فى حولى إخماد الفتنة فعلت ذلك ، وإن لم أستطعه ، فسأرتد إلى خط الاستواء . وإنى أضع على عاتقكم عار تركيكم حاميات سنار وكسلا وبربر ودنقلا الذى لا يمحى . وكونوا واثقين من أنكم فى النهاية سترغمون على القضاء على المهدى بصعوبات كبيرة ، إذا أردتم المحافظة على الأمن والسلام والاطمئنان فى مصر » .

ولكن الشعب البريطانى ، ملكته وصحافته ونوابه لن يتركوا غوردون ، غوردون بطل الصين العظيم فى مآزقه الحرجة . فعُقدت الاجتماعات ، وكتبت المقالات ، وافتتحت التبرعات ، وانهالت الأسئلة فى البرلمان عن غوردون ومن أجل إنقاذ غوردون . وأصرّت الحكومة البريطانية فى ردودها على أسئلة

المستفسرين على أنه ليس فى خطر داهم ، وإنه كما قال جلادستون « حر فى أن يترك الخرطوم إذا شاء » . . ويكتب غوردون فى مذكراته : « إننى لن أترك هؤلاء الناس بعد الذى عانوه ، ولن أبارح الخرطوم إلا بعد أن أضع إنسانا هنا مكانى » .

وتسلم سير إيفلن بيرنج فى ٢٦ أغسطس برقية من غوردون يقول فيها : « إنى منتظر القوات الإنجليزية لإخلاء الحاميات المصرية . ابعثوا لى بالزبير باشا وامنحوه ثمانية آلاف جنيه فى العام . وإنى سأسلم السودان إلى السلطان (تركيا) حينما يصل مائتا ألف جندى تركى . فاذا قتل الثوار المصريين فأنتم مسئولون عن دمائهم . وإنى فى حاجة إلى ثلاثمائة ألف جنيه لأدفع مرتبات الجنود ، فإن نفقاتى اليومية ألف وخمسمائة جنيه ... »

واشتد قلق الشعب البريطانى ، فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة إنقاذ إلى غوردون بقيادة لورد ولسلى ، ولاحت فى الوقت نفسه فرصة أخرى لغوردون فقد أخذت مياه النيل ترتفع وأصبح صالحا للملاحة . فأرسل كولونل ستيوارت والمستر باور قنصل انجلترا ومراسل التيمس فى الخرطوم ، وقنصل فرنسا وبعض المهاجرين على الباخرة عباس . واحتقب ستيوارت معه مذكراته عن الحصار ونداء من غوردون وجهه للدول الأوربية، وجزءاً من مذكراته .

ومضت الباخرة حتى ارتطمت بصخرة فى النيل بالقرب من بربر، واستدرج السكان ستيوارت ومن معه ففتكوا بهم غدراً .

كانت الخرطوم فى خلال هذه الأحداث التى تموج حولها و بعيداً عنها، تئن من ضائقة الجوع وتفزع من شبح الدمار . وغوردون يشجع أهلها، ويقوى من عزائمهم، ويعلق منشوراته فى شوارع المدنية يبشر فيها الناس بقرب وصول حملتين من القوات الإنكليزية، إحداها عن طريق كسلا، وأخراها عن طريق دنقلا ، وحملة ثالثة جردها سلطان تركيا عن طريق سواكن ، ورابعة أعدتها مصر عن طريق كسلا ورفاعه، ووجهتها كلها الخرطوم . فاذا ما خارت عزائم الجند والسكان قليلا فرّق عليهم وسامه الذى أسماه « نجمة الحصار » ، وجعله طبقات ودرجات. ولما نفدت خزائنه من المال، طبع أوراقاً مالية متعددة القيم والفئات . واشتد الغلاء وارتفعت أثمان الحاجيات وأخفى التجار الحبوب، فشن عليهم حرباً ضروساً . ولكنه وحده يفكر ويدير، ويستعد ويشجع ويرتقب . أنيسه فى وحدته ووحشته مذكراته يدون فيها خواطره وهجسات نفسه ، ويمد يده إلى الكتاب المقدس يفتحه من آونة لأخرى ، يستمع إلى نبوءاته ويطل منها على المجهول . ويتنبه فى أعماق نفسه وأغوارها البعيدة ، الصوفى المتوكل ، فيأمل فى كل شىء ولا يخشى شيئاً . ثم يهرع إلى مذكراته فسطر فيها : « ما هى نهاية كل هذا ؟ إنها ولا محالة قدر مقدور فى سجل

الأزل . إن الخرطوم ستؤخذ عنوة على مرأى من حملة الإنقاذ التى ستأتى بعد فوات الوقت » .

إنها روح الصوفى تنطلق فى سبحاتها وتمرق فى أكناف المستقبل فتشاهد وتحس بالأحداث قبل وقوعها . ويفكر فى الهدى فيكتب : « أشعر دائماً بأنه قُدّر علينا أن نلتقى يوماً ما وجهاً لوجه » . أحقاً سيلتقى الصوفيان ؟ متى وأين ؟ وتروعه فى هدأة الليل أصوات طيور اللقلق، فيذكر أنه رآها جموعا جموعا فى رومانيا ، وأنها مرت سابحة فوق سفينته وهو أمام جزيرة أبا فى طريقه إلى الجنوب منذ سنين ماضية ، فانطلقت منها فى سكون تلك الليلة القمراء ، صيحات مفزعة مملوءة تهكما وسخراً . ويذكر أخرى ما ورد عنها فى الكتاب المقدس . ولكن مالها تصيح الليلة كالساخر المتهكم ؟ أهى دوما ساخرة متهكمة ؟ وما لهذه الصقور تحوم وتدوّم فوق القصر ؟ لقد ورد عنها فى الإنجيل أنها ستلتقط عينى من يهزأ بأبيه ويَصْدُف عن طاعة أمه ، وإن صغارها ستأكل عيون أولئك العاقين « أترى قدر لها أن تقتلع عينىّ ؟ إنى لأخشى أننى لم أكن أبر الأبناء » . كانت مذكراته وإنجيله ومنظاره هى كل شىء إليه وسط ذلك اليأس القاتل والواجب الضخم .

وإنه ليجيل طرفه فيمن حوله من الجنود والموظفين والسكان ، فلا يرى

إلا عيونا وجلة زائغة ، ونظرات حائرة خاطفة ، وخيانة تطل من كل حدقة ، ورغبة فى طوايا النفوس تدفعهم إلى التسرب والانضمام الى المهدى . الجوع والخوف والانتظار وخيبة الأمل والتعليل المتواصل بالأمانى الكِذاب ، قد امتصت من قلوبهم كل شجاعة وجلد . ويقارن غوردون بين من يحوطون به وبين أقل أنصارى من أتباع المهدى فيجد فيه « جنديا باسلا يحتمل الظمأ والجوع ، ولا يقيم وزنا للموت كأنه حجرٌ صلد » . أولئك الذين تمنى لو أنه كان قائدهم المتبوع .

وعرف المهدى من مذكرات ستيوارت التى بعثت إليه الحالة فى الخرطوم ، وما يكتنفها من جوع وخوف ومرض ، فجد السير فى زحفه على العاصمة بعد أن أقض أمراؤه مضجعها ، وروعوا أهلها ، وهاجموها من كل صوب . ولم يبق فى مخازنها ومستودعاتها فى يوم ١٠ ديسمبر من الحبوب إلا قدراً قليلا يكفى سكانها خمسة عشر يوما . إن غوردون لتروعه حقا معضلة التموين . والمهدى قريب من الخرطوم وحصن أم درمان ، وقواده يشددون النكير على العاصمة المتداعية الروح المعنوية ، فقرر أن يشدد التضييق عليها حتى تسقط جوعا وتتهافت إعياء .

وأين حملة الإنقاذ ؟ إن الجنرال لورد ولسلى يسير بجيوشه وسفنه جنوبا سيراً متواصلا حثيثا . والطريق وعر طويل ، والعقبات متعددة ، ولكن

لورد ولسلى وقواده وجنوده يجدون السير للاتصال بغوردون قبل فوات الوقت، فتم الاتصال بينهم فى المتمة فى ٤ نوفمبر ، وذكر غوردون فى كتابه إلى قائد الحملة كل شىء . ويشجعه ولسلى وينبئه بأن قواته التى جاءت معه من انجلترا، متعطشة إلى خوض غمار القتال ، ومع ذلك فقد « رأيت فى زمانى سفك دماء كثيرة ، وأفضل أن ينتهى النزاع سلميا ، وذلك بمسامحة محمد أحمد فيما مضى وجعله سلطانا مستقلا على كردفان ، يكون الملك فيها له ولأولاده من بعده ، وبتأسيس حكومة وطنية فى الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلا عن مصر وحكمه وراثى ، فيملك دنقلا وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى انجلترا . أما إذا أبى محمد أحمد إلا الحرب، فإن عساكرى سينالون منه مأربهم، وهم نخبة مختارة من الجنود البسلاء »

ويثير ولسلى حماس جنوده البسلاء لأن « إنقاذ غوردون وحاميته المحصورة فى الخرطوم منذ زمان طويل، هو العمل الذى ندبتنا إليه جلالة الملكة » . وجد الجنود السير براً وبحراً ، ودارت المعارك بين حملة الإنقاذ وجنود المهدى ، وتقدمت إلى الأمام منتصرة تشق طريقها حتى اتصلت سفنها فى النيل بسفن غوردون، تحمل بقية مذكراته وإيماءته الأخيرة بالوداع « إذا لم تصل الحملة — ولست أطلب أكثر من مائتى جندى — فى مدى عشرة

أيام فالمدينة قد تسقط . لقد فعلت خير ما يفعل للمحافظة على شرف بلادنا .

وداعا ... غوردون » .

ولكن الحملة تلاقى مقاومة عنيفة فتتباطأ فى تقدمها حتى ليكاد يكون نصرها فى كفة القدر ، ومع ذلك فقد شقت طريقها ووصلت فى ٢١ يناير سنة ١٨٨٥ إلى المتمة ، ومصير العاصمة يقترب شيئا فشيئا ، وجناح الفناء يهفو فوقها ، ويدنو مطبقا للاجهاز عليها .

ويقف غوردون وحيداً منفرداً فوق سطح القصر حينما ينبثق الفجر ويضحى النهار ، وحينما تنحدر الشمس إلى المغيب ، يدير منظاره فى دائرة الأفق البعيد، لعله يرى فى انطباق دائرة السماء فوق دائرة الأرض، نقطة متحركة إلى الأمام، قد تكبر فتكبر رويداً رويداً أمام ناظريه، وقد تنجلى أخيراً عن حملة الإنقاذ . فما أمرّ الانتظار . . . .

ويستولى المهدى على حصن أم درمان ، ورسائله من قبل تصل إلى غوردون تترى يدعوه فيها إلى التسليم والإسلام ، وغوردون فى موقفه يزداد عناداً وتصميا واستبسالا . ويكشر الجوع عن ناجذيه ، ويدفع أمامه الجموع الضّاوية من النساء والأطفال فى شوارع الخرطوم ؛ يطلبون حفنة الذّرة بما يملكون من مال وحلى ونضار ، بعد أن أكلوا كل شىء : الجلود والصمغ والكلاب . وهدّ السّغب الجنود فهزلت أجسامهم ، ووهنت قوتهم ، وهرب

ضعفاء القلوب منهم يلوذون بالمهدى فراراً من الجوع وخوفاً من السيف .

وتطايرت الإشاعات أن المهدى سيهاجم الخرطوم فى ٢٥ يناير ، وغوردون وحده وسط تلك المأساة المطبقة من كل ناحية . إن أعيان العاصمة يريدون مقابلته فيأذن لأحدهم نائباً عنهم ، فإذا ما مَثُل بين يديه صاح به : « ماذا أقول أكثر مما قلت . لقد أخبرت الناس مرات عديدة أن الحملة آتية لا محالة ولكنها لم تأت . فهم اليوم يعتقدون أننى كذبت عليهم . ولست أستطيع فعل أكثر مما فعلت . فاذهب واجمع القادرين على القتال فى خط النار وقفوا وقفة باسلة مشهودة . أما الآن فدعنى أدخن هذه اللفائف » . وما ذا يصنع غوردون أكثر مما صنع وحيداً منفرداً يحاصره جيشان : جيش المهدى ، وجيش الجوع !

وتلمح حدقة المنظار جموعا غفيرة من جنود المهدى تجتاز النيل وتعسكر عند شجرة « محّوبك » . فأعد غوردون عدته وتأهب للقاء الأخير : أأحتشد الأنصار أمام أضعف مراكز دفاعه ؟ ومن أين لهم معرفة نقط الضعف فى خطوط نيرانه ؟ إنه ليبعث الأمل فى نفوس الجنود والأعيان ويمنيهم بمجىء الحملة غداً ، فإن ثبتوا فقد نجوا وتغير كل شىء .

الليلة الأحد ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ . والقمر يلوح ضئيلا فى التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ . فأمر غوردون أن تعزف موسيقى الجيش ،

وتُطلق الأسهم النارية، فلعل الأنغام المترددة، والأنوار المتصاعدة بألوانها الجميلة المتباينة، تدخل الرجاء والقوة فى القلوب الضعيفة والنفوس الخائرة . أكانت تلك أنغام الوداع ونذير النهاية ؟ يوم واحد وينقضى كل شىء ، فإن أسرعت الحملة وجدّت السير قليلا واقتحمت طريقها عنوة ، فقد تنجو العاصمة من السقوط والدمار ، وإن تأخرت فقد قُضى الأمر وذهب كل شىء هباء . إنها النهاية المحتومة ، إنها ستصل بعد فوات الوقت .

وانتصف الليل وغوردون وحده فى القصر المنيف يفكر ويفكر، ويناجى نفسه « إننى لن أنال حيّا » فقد وضع موادّ شديدة الانفجار فى أقبية القصر ترتفع فجأة به وبمن فيه وتهبط به ركاما جاثياً . ولكن نسف القصر « ضرب من الانتحار وانتزاع لما فى يد الله . ومن حقه علىّ تمسكا بعهده ، أن أبقى إذا دعا الأمر ، مصفداً فى أغلال المهدى أعانى العذاب نزولا على إرادته تعالى » . وعلى كثب منه سفينة يتصاعد بخارها لتحمله جنوبا إلى خط الاستواء إذا اقتحم الدراويش خطوط النار .

وبات أنصار المهدى ليلتهم تلك كشأنهم دائما ، يكبرون ويتهجدون ويسبحون انتظاراً لانبثاق الفجر ، فلما نشر رداءه فوق الأفق الساكن ، صلّوا والتفوا حول المهدى ، فرفع يديه الى السماء وتلا الفاتحة وأصوات الجمع

الحاشد تتلو معه فى دوى وهزيم ، وامتشق حسامه ولوّح به فى الهواء ثلاثاً وكبر ، ثم قال لأنصاره ، هيّا إلى الخوطوم .

* * *

وتدفّق السيل الجارف صوب خندق النيل الأبيض فاقتحمه ، والتفّت قوات المهدى الأخرى بحصون الدفاع وخطوطه ، وشقوا سبيلهم الى العاصمة الساكنة فى هدأة الفجر ، وسيوفهم ورماحهم تقطر دماً ، ورصاصهم يدوى دويًّا متواصلاً ، وأصوات تكبيرهم ترتفع فوق ذلك الدّوى الصاخب . واستيقظ غوردون فزعاً ، فارتدى بذلته العسكرية وأمسك حسامه ومسدسه قبل أن يصل المهاجمون الى القصر . ووقف الحكمدار لملاقاتهم فى نهاية السلم العليا جنديًّا عظيما رابط الجأش صامتاً وقوراً ، يجيل عينيه فيمن حوله ، كأنّه يستقبل أيام عزه وسطوته ، وفود القادمين لتحيته من أفراد الشعب . وانطلقت من أحد الواقفين صرخة عالية « ملعون ! اليوم يومك » ، وأنفذ حسامه وتعاقبه الآخرون ضربًا وطعناً .

أحقًّا ما زعموا أن المهدى أمر أنصاره أن يأتوه بغوردون حيًّا ليفتدى به عرابى من الأسر ؟ إن كلمة المهدى قانون نافذ وإرادة لا ترد ، فلو أنه قالها لما اجترأ إنسان أن يخالف ما أمر به المهدى . ومن يدرى فقد يكون الزعم حقًّا ، ولكن نشوة النصر اكتسحت فى حميّاها النفوس المتوثّبة فنسيت كل

شيء ؟ وجيء برأس غوردون فوق رمح الى المهدى، فالتقى الصوفيان بعد طول عناء وصراع .

ومضى يوم وأعقبه يوم ، وسمع فى ضحى الأربعاء هزيم المدافع شمالى جزيرة توت ، ولاحت باخرتان فوق إحداهما سير شارلس ويلسون وبعض الضباط والجنود البريطانيين ، وهما تجدّان السير لإسعاف غوردون ولكن بعد فوات الوقت كما تنبأ الصوفى فى مذكراته . وتطلع رجال الباخرتين يفتشان وسط الدخان المنعقد فوق الخرطوم ، عن العلم المصرى يرفرف فوق قصر الحكمدار فلم يبصروا له أثراً ، وكان ذلك آخر عهده وحده بالتمايل والخفوق ، فارتدت الباخرتان من حيث جاءتا تحملان النبأ المفجع للورد ولسلى قائد حملة الانقاذ ، ومدافع حصون الأنصار على ضفتى النيل تطلق عليهما وابلا من تحيات القنابل والرصاص .

وتناقلت الصحف فى انجلترا وأوروبا مأساة الخرطوم بالوصف والتعليق تارة ، وبالغضب والتوعد تارة أخرى ، وارتفعت تلك الموجة التى تطغى من قلوب الأمم فى محنتها ، ليتشكل زبدها صوراً شتى من صور الاعجاب والتقدير والمطالبة بالثأر ، فكانت مؤاساة الملكة فكتوريا لشقيقة الصوفى المسيحى أول رشاش تلك الموجة « كيف أسطر إليك لأعبر عن شعورى ، وكيف أداوم التفكير فى أخيك العزيز النبيل البطل ، الذى خدم بلاده وملكته

بإخلاص و بطولة وتضحية، كانت مثلاً رائعاً للعالم بأسره فهوى صريعا دون أن تمتد إليه يد الإنقاذ » ولم تنس الصحف البريطانية أن تشيد بذكر بطلها الشهيد القومى ، وتسابق المتبرعون سخاء وبذلا لتخليد مجده ، ولم تنس أيضاً أن تطالب بثأره « من الهمج المتوحشين » .

واتجهت أنظار العالم كله الى تلك العاصمة النائية ، والى ذلك الإمام الزاهد الذى أيّدته العناية أيما تأييد . وهاجر المتحمسون من البلاد الاسلامية، من مصر والحجاز والهند و بلاد المغرب وأفغانستان الى المهدى مرة أخرى فى أم درمان، مثلما هاجروا إليه فى الأُبيّض عقب واقعة شيكان . أفيقف السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين من هذا الداعية موقف عدم المبالاة والاكتراث ؟ إنه إن وقف تلك الوقفة مكّن له فى القوة وامتداد الصيت ، فأصدر منشوراً كذب فيه دعوى المهدى ، وتابعه الأزهر فأفتى بتكذيبه ، وسار خلف المنشور والفتوى مجلس النظار ، فأصدر بلاغاً رسميا عزّز الرأيين وكذب فيه الدعوة والداعى البعيد .

والمهدى أمنع من أن تناله تلك التكذيبات ، أو تزعزع ايمان أحبابه به، وتقدير العالم الاسلامى له . أليس هو اليوم بعد سقوط الخرطوم صاحب الكلمة العليا فى جنوبى النيل والإمام الذى لا إمام سواه ؟

٥

٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ
٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ م

تألق بعد سقوط الخرطوم ومقتل غوردون وارتداد حملة الانقاذ ، نجم المهدى وطار صيته كل مَطار، ودانت له البلاد إلا قليلا، فأصبح السيد المطاع والآمر المتبع فى السودان . فأخذ يستقر بجيوشه وأنصاره على ضفة النيل الغربية عند حصن أم درمان ، فزاد فى تلك الرقعة وجعلها عاصمة البلاد . وأخذ فى الإنشاء والتعمير والتدبير، فبنى جامعاً ومصنعاً للذخيرة ، وسَكّ النقود بأمره واسمه ، وكثيراً غير ذلك من المنشآت التى تقتضيها ضرورات الادارة، وشؤون الحكم ، وتوطيد أركان المهدية، ونشر دعوتها فى خارج السودان .

وحفزته آماله الجسام فى نشر دعوته ففكّر فى فتح مصر ، وغزو الشام ، وإخضاع الحجاز، والاستيلاء على تركيا . فكتب منشوراً عامًّا الى أهل مصر، حكامها وأعيانها وكافتها، يخبرهم بما عقد العزم عليه. ألم يذكر سلاطين أنه كان يريد أسر غوردون حيًّا ليفتدى به عرابى ويخرجه من منفاه البعيد فى سيلان ليساعده فى فتح مصر ؟ ان بين الزعيمين عواطف متبادلة ، فكلاهما رجل

دين وتقوى وصلاح ، وإن اختلفا قليلاً فى الاتجاهات والأغراض . لم ينس المهدى عرابى ، ولم ينس عرابى المهدى بل ذكره كما ذكره محمد عبده من قبل ، بالخير وجميل الثناء .

ويكتب عرابى فى الجزء الثالث المخطوط من مذكراته أنه « حضر لزيارتنا فى سنة ١٨٨٤ اللورد روز برى واللورد ماكدونالد فى محل إقامتنا الكائنة بجهة « متوال » ، وبعد هنيهة أخذ يسألنا عن حملة هيكس فى السودان ، وهل هى كافية لدحر قوة محمد احمد المهدى أم لا ؟ وكانت المكالمة باللغة الفرنسية ، وكان محمود باشا فهمى يترجم لنا حديث اللورد روز برى . وهاك المحادثة التى دارت بيننا :

اللورد : ما رأيكم فى دعوة مهدى السودان ؟ وهل هو المهدى المنتظر عند المسلمين ؟

عرابى : وماذا يعنيكم من أمره ؟

اللورد : إن أمره يهمنا كثيرا ، فإن لنا فى الهند ستين مليونا من المسلمين ، وكلهم يعتقد أن المهدى المنتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته .

عرابى : إن هذا الاعتقاد يعتقده كل مسلم .

اللورد : إذن ليس هو بمهدى ؟

عرابى : كل داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدى .

اللورد : إن الحكومة المصرية أرسلت جيشا من عشرين ألفا لقتاله بقيادة رجل انجليزى اسمه هيكس ، فهل ترون أن هذا الجيش يكفى للتغلب على المهدى ؟

عرابى : نحن نرى أن وجود قائد انجليزى على جيش مصرى يكون من صالح المهدى، فإنه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون إخوانهم المسلمين تحت قيادة مسيحية ، ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة ، وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قويا يخشى جانبه .

اللورد : أى علاج فى نظركم لإطفاء شعلة ثورته .

عرابى : إننا نرى أنه قائم بدعوة دينية، وعلاجها أن يرسل إليه وفد من أجلاء العلماء يحاجونه بالدليل والبرهان ، ويقنعونه بالحسنى فيما جاء بدعوته ، وإن كان طالب مُلك فيجعل أميراً على السودان تابعا للحكومة المصرية ، وعلى الحكومة المذكورة أن ترسل إليه العلماء من القضاة والأطباء والمهندسين والمعلمين ، وتفتح المدارس وتنشر العلم وتجرى الإصلاحات اللازمة فى الأقطار السودانية لتمدينها ، وفى مقابل ذلك يعطى المهدى جزية سنوية لمصر بنسبة إيراد السودان ومصروفه .

ثم انتهت المحادثة . وفى اليوم التالى توجهنا مع محمود فهمى باشا إلى دار الحكومة لرد الزيارة إلى اللوردين المشار إليهما ، فوجدنا اللورد روز برى قد توجه إلى صيد الأفيال فى مسارحها ، وأما اللورد ما كدونالد فآثر البقاء . وقد أخبرنا بورود تلغراف إلى اللورد روز برى، بأن حملة هيكس هلكت عن آخرها ، واستحوذ المهدى على جميع أسلحة الحملة ومدافعها وذخيرتها . ثم قال اللورد « وهكذا كان الأمر كما رأيتم وكما أخبرتمونا بالأمس » .

من يدرى كيف كان التاريخ يغير مسيره ويقلب صحائفه، لو أن غوردون أسر فافتدى به المهدى عرابى ، والتقى الزعيم العسكرى بالزعيم الدينى فى رقعة واحدة، واتفقا رأيا وخطة وعملا ؟ ولكن ذلك كله لم يثن المهدى عن تنفيذ أمانيه العظام، فوجه للخديو توفيق خطابا يذكّره فيه « بدسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الإسلام ، وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام ، فقد أفضت إلى اندراس معالم الدين وعطّلت أحكام الكتاب والسُّنة ، فصارت شرائع الإسلام غريبة بين الأنام . وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت المحارم ، واشتد الكرب على أهل الإيمان » . ثم نوّه بما طوّقه الله به من الخلافة الكبرى — المهدية — وبأنّ من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله، ألم يخرج الناس على حكم الكتاب والسنّة؟ ومن يخرج عليهما « فأولئك هم الكافرون » ، وإذن فأنفسهم وأموالهم غنيمة للمسلمين .

ثم عدّد المهدى بعد ذلك انتصاراته وفتوحاته وقهره لجيوش الحكومة ومن كذّب به ، وما أصابهم جميعا من هزيمة نكراء واندحار شامل ، سيحيق بمن يقتفون آثارهم حتى يكون ذلك عبرة لمن يعتبر .

« وهذا أوان المؤمن المصدق بوعد الله، لا يرى لجميع مافى الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ، ولا يأسف على ما فاته من ملكها الذى مآله للزوال وعظيم النكال . وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من ثواب فى دار الكرامة والافضال ، فإن الدنيا لو بقيت للأول لم تنتقل للآخر .

ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموت أو عزل من كان قبلك، وهو خارج من يدك ، وحيث كان الأمر كذلك فلا ينبغى لك إن كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد ، أن تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كانت الدنيا بحذافيرها . فدقق النظر ، واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك ، واسع فيما ينجيك عند ربك ، إذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك .

وما يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله، وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ألم تسمع قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم» . وقوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم » ؛ وقوله تعالى : « يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » ؛ وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزءاً ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » .

وما هذه الطاعة لأعداء الله، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد أيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله » . إلى أن قال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

فان كنت ممن ينظر بعين بصيرته ، ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته ، فاعتبر ذلك ، وبادر إلى النجاة والسلامة المعتبرة، وهى سلامة الإيمان ، ونزه نفسك عن أن تكون فى أسر أعداء الله دائما ، ولا تهلك من معك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم » .

ويمضى المهدى فى كتابه فيحذر الخديو من « الركون إلى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك » . ثم يحذره أخرى من الاغترار بقوته « ومظاهرة دول أهل الكفر لك، فانها لم تغن عنك من الله شيئا ...

وليكن فى علمك أن أمرنا هذا دينى مبنى على هدى من الله ونور من رسوله ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية ، وما قصدنا فيه إلا إحياء

الدين و إظهار آثار الأنبياء والمرسلين، ولا نريد مع ذلك ملكا، ولا جاها، ولا مالا » .

وكتب مثل هذا الكتاب الى الشام ، ورد على المراكشيين المقيمين بمصر، بعد أن كتبوا له مصدقين به، وسألوه تنصيب أحدهم أميراً من قبله على مراكش لنشر دعوته فى المغرب وشمال افريقيا . ولم تخرج تلك الكتب كلها عن توضيح رسالته، و إبانة مقاصده، وزهده فى الملك والجاه والمال والسلطان. حتى أصبحت تلك المبادئ التى يكررها ويعيدها، أساساً لتعاليمه ونشر دعوته، فاقتفى أثرها بعد موته خليفته عبد الله التعايشى تحقيقاً لفكرة المهدى والمهدية، وتأييدا لمبادئ المهدى وتوكيدا لأغراضه . فكتب التعايشى الى أهل مصر والى الخديوى ، والى الملكة ڤكتوريا ، والى السلطان عبد الحميد ، والى قبائل نجد والحجاز ، والى أهل مكة والمدينة ، والى ملك الحبشة ، والى سلاطين غرب السودان فى وادى وغرب افريقيا .

لم يكن للمهدى من غرض وقصد سوى أن يعيد للاسلام سابق ما كان له من مجد فى صدره الأول ، وأن يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جورا، وأن يحارب كل من عاداه وكذب به ، وعدهم قوماً كافرين خارجين على تعاليم الاسلام، فليس لهم أن يعاملوا بغير معاملة المارقين المكذبين فى الحروب الدينية . وكانت له فى سبيل تحقيق هذه الغاية تعاليم دينية، وأخرى اجتماعية، وثالثة اقتصادية .

أيقف المهدى فى دعوته وقفة الجامد الذى يرث تعاليم الإسلام دون أن يزيل عنها ما تراكم عليها من خرافات القرون وغفلة الجامدين ؟ إن باب الاجتهاد مفتوح لم يغلق ، وأن تعاليم الإسلام في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، خير مصدر يستقى منه المفكرون من مصلحى الإسلام كل جديد يتمشى مع العقل وحاجات التقدم البشرى . والمهدى لن يتمسك بالقديم الذى أصدأته القرون بأوهامها وخرافاتها ، وإنه ليرد كل أمر إلى أصوله الأولى ، ويُيَسّر على الناس ما يجب التيسير فيه ، ويشدد عليهم ما يجب التشديد فيه ، ويأخذهم بالعنف إن وجب العنف ، وبالرفق إن كانت فى الرفق سلامة ونجاة . ولن ينقصه فى تحقيق هذه الغاية إلا الجرأة التى عُرف بها فى الحق ، والاقدام فى سبيل نُصرة دين الله . فأعلن تعاليمه الدينية مجتهدا مجددا مصلحا مستندا فى ذلك على الكتاب والسنة ، وحكم العقل البرئ من الضلالات والأوهام . فأبطل المذاهب الأربعة واستخرج منها مذهبا اجتهاديا جديدا ، وحدّ فيه تلك المذاهب فسوّى ما بين بعضها البعض من خلافات ، وألغى بعضا منها ، وعاد بها سيرتها الأولى موحدة لا اختلاف فيها ولا تباين .

ويسرّ العبادات كالوضوء والغسل ، وشدد فى العقوبات فقطع يد السارق وجلد على المعصية وشرب الخمر . وجدّد فى المعاملات « فنهى عن زواج

البالغة بلا ولى ولا مهر ، وحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها ما تنفقه فى حاجتها ، إلا إذا كانت غيبة الزوج فى موطن الجهاد ، فيكتب له القاضى ويحدد له موعدا يحمل زوجته إليه فى خلاله ، فاذا مضى الأجل حكم القاضى بطلاقها . وقضى على رجل قتل آخر رآه مع امرأته فطالبه ببيّنة العكوف على حرام فعجز ، فأنفذ فيه عقوبة القذف أولا ، ثم عقوبة القتل ثانيا . وحكم برد طالقة الثلاث إلى مطلقها قبل أن تتزوج بغيره ، إذا كان طلاقها قبل حلول دعوته . واضرب فى المعاملات عن تحليف الشاهد مع قبول الطعن فى عدالته » .

أكان المسلمون فى عهدهم الأول متفاوتين مذاهبا متعددين شروحا وأحكاما ؟ إنهم لم يكونوا كذلك . وقد يضر الخلاف الناشب فى شئون الدين ، عباداته وعقوباته ومعاملاته ، بعقول البسطاء ومعتقداتهم الذين لم يتفقهوا فى أصوله ويقفوا على صحيح تعاليمه ، ومن أضر بهم الجهل ضررا بليغا .

إن قضاته ونوابه ، الذين عهد إليهم بمباشرة الأحكام والقضاء والفصل بين الناس ، قد اختارهم من صفوة العلماء الأجلاء الأتقياء ممن درسوا فى الأزهر أو ممن عُرفوا بالعلم والتقوى . فهو قادر بهم على وضع الأمور فى نصابها ، والرجوع بالإسلام فى أصوله وقوانينه وتعاليمه ، إلى ما كان عليه فى

صدره الأول ، فلا خلاف إذن ولا مروق على الكتاب والسنة .

إن المهدى بهذه الفِعلة الجريئة قد وضع أساس حركة إصلاحية كبرى جالت بعقول كثير من مصلحى الإسلام قبل عهده وفى عهده وبعد عهده ، وإن كثيرا من علماء الأزهر فى مصر وشبابه وطلّاب الإصلاح ، قد رحّبوا بتلك الفكرة وقدّروها حق قدرها ، فدفعت ببعضهم إلى الذهاب إليه والانضمام تحت لوائه . ولكن المصلحين من أئمة المسلمين من سبقه ومن عاصره ومن جاء بعده ، أعوزتهم الجرأة فى سبيل الله والحق التى يستطيعون بها الجهر بآرائهم والدفاع عنها والتضحية فى سبيلها، فكان بذلك مجددا ومجتهدا، ومصلحا وجريئا فى الحق ونصرة الدين .

ويذكر المهدى فى غَضَارته الأولى ، أن الناس فى السودان تباينوا درجات وطبقات . فمنهم تاجر أشرقت له الأيام بالغنى وأثرى من تجارة سن الفيل وريش النعام والرقيق . ونازعته نفسه الصبوات فأطلق لها العنان يَنْهز منها غير مرتوٍ من فيضها الدّفاق ، فعاش يَسِيم سرح اللهو كل مَسَام . فكان وكانوا ، يقدمون القهوة فى أقداح (ظروف) الذهب ، ويزيّنون خِفَاف نسائهم وسراريّهم المحظيات بأسلاك النضار ، وتُصنع دجاج الذهب وفراريجها تماثيل توضع تحفا فى بيوتهم ، لتُومى إلى الغنى الطائل والثراء الوسيع .

وصاحب منصب كبير ، أثرى رشوة واختلاسا ، فاقتنى العقار ، واختزن المال ، وأسلس قياده للّذاذات ، ظمآن لا يُبلّ له أوام . فلا تعرض له صبوة إلا اندفع نحوها ، ولا بارقة لهو إلّا اقتفى أثرها . ومعدم أزرت به الأيام ، فخال سلوى النفس فى الامتاع والايناس ، والاستعانة باللهو على مضض الفاقة وتجبّهم الأيام .

ومن دون هؤلاء وأولئك ، قوم ازدانوا خلقا وفضلا ودينا . أفيترك المهدى تلك البدع تسرى فى كيان الأمة ، فتوهن بنيانها الاجتماعى ، وتقوض دعائم دعوته ؟ إنه ليأخذ الخليعين بالصرامة والبأس ، ويحرّم عليهم حتى الامتاع البرئ ، فلا يسدرون فى المجانة والغواية واللذات .

فأبطل أول ما أبطل ، الألقاب والرتب الرسمية وغير الرسمية ، فتساوى الناس طبقات ودرجات . وقارب ما بين الغنى والفقير ، وفرض على الجميع اتّباع لباس واحد ، هو جبة الزاهدين المرقعة ، ومنع النساء من التزين بحلىّ الذهب والفضة والتّبرج ، وسمح لهن بغير ذلك فى بيوتهن ، وحدّ من خالفت ذلك بالجلد . وأمر البدو بحلق شعر الرأس ولبس العمامة ، بعد أن كانوا يرخون شعورهم ويصقلونها بالدُّهن . وحرم الاحتفال بالأعراس والختان احتفالا يدعو إلى النفقة والإسراف . وجعل مهر زواج البكر عشرة ريالات وثوبين ، ومهر الثيّب خمسة ريالات وثوبين ، وعاقب من خالف ذلك بمصادرة أمواله

وضمها إلى بيت المال ، فسهل بذلك نفقات الزواج على الفقراء ، ودعّم النظام الاجتماعى بسياج قوى من العفـة والحصانة . وأبطل الغناء والرقص ونقر الدفوف ، وجازى من خالف ذلك بجـلده سبعة وعشرين سوطا ، تزيد إذا تمادى المخالف فى فعله ، وحلق شعر من لا ترعوى عن غيّها فى هذا السبيل . ومنع البكاء والنوح على الميت . وضرب من اشتغل بالدّجل والتنجيم وكتابة الرُّقى والتمـائم . وحرّم شرب الدخان ومضغ التبغ والحشيش والخمر . وجلد على ذلك ثمانين سوطا ، والحبس سبعة أيام . وجعـل عقاب هُجر القول وفحشه ، سـبعة وعشرين سوطا ، فعرفت تلك العقوبات الزاجرة بعقوبة ، « حق الله » . وأعاد قصاص الرّجم للزناة وقطع يد السارق .

لم يترك المهدى هـذه التعاليم الدينية والاجتماعية عُرفا مألوفا ، بل ضمّنها منشورا عاما ، أذاعه على أمرائه وأنصاره وأحبابه فى جميع أنحاء السودان . فغدا ذلك المنشور دستور تعاليمه وسجل قوانينه ، يتبعها الأحباب والمهاجرون والأنصار والاخوان . وشـدد النكير على الملاذ والانغماس فى البذخ . فطلب من أحبـابه ترك « التّرفّهات لأن موت النفوس حياتهـا . فألبسوا الجبب المرقعات ، وألبِسوا نساءكم البسيط الساتر . ولا تجاوروا من ترك الجهـاد ، أو فعل منكرا من المنكرات المنهية كتابا وسـنة . فخذوا نفسه وماله غنيمة للمسلمين المجاهدين .

ولا تمنعوا الأراضى لأنها لا تُملك . بل هى محُوزة لبيت مال المسلمين .

وليتعلّم بعضكم من بعض ، وليتأدّب بعضكم لبعض . وليكسر المجاهد طرفه لأخيه المجاهد ، وأن لا يعلو عليه ، ويساويه فى الفراش والأكل ، وأن الأمراء والكافة كلهم على حد سواء ، إلا فى الأمر والنهى ، فليحبوهم ولا يتفاضلون عليهم فى المرْكَب والملبس والمأكل ، فمن فعل ذلك فهو مردود منا .

اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق مَمْشاى هذا إليك ، لم أخرج أشَراً ولا بَطَراً ولا رياء ولا سُمعة ، بل خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك . أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

إنها تعاليم المساواة بين أحبابه ، والتقريب بينهم ، ورفعهم إلى مستوى لا يتعالون فيه درجات وطبقات ، إلا بالعمل الصالح والتقوى والاستبسال فى الجهاد ونشر دعوة المهدية ، التى بعد أن أوضحها ودعّمها بتقاليده وعرفه ، فزجر النفوس وحملها على الزهد ، سندها بنظامه المالى القائم على جميع الزكاة والعشور والغنائم فى بيت المال . فكان نظاما اسلاميا أو اشتراكيا دقيقا يسير كما يقول غوردون فى مذكراته « تحت لواء الدين » ، منع فيه حوزة الأرض

« لأنها لا تملك بل هى محوزة لبيت مال المسلمين » ، وأبان أمرها فى منشوراته إلى عماله ، تِبْياناً يرجع إلى الأحاديث الواردة بشأنها .

« وأما الغنائم وتقسيمها ، فان كان المجاهدون منقطعين لله فقط ، ولا غرض لهم سوى الله ، ولا حرفة لهم سوى الجهاد ، وليسوا أهل بيع وشراء ولا حرث ، فليَصِر جمعها ووضعها فى بيت المال ، والصرف منها شيئا فشيئا ، إذْ إنهم لا وسيلة لهم سواه . وأما إذا كانوا من ذوى الحرف ويجتمعون للجهاد لوقت معلوم ، وعند انتهائه ينفرون لحرفهم ، فَلْيَصِر أخذ الخمس منها ، وباقيها يقسم لهم على وَفْق كتاب الله وسنة رسوله » .

ويشرح لهم وسيلة التعاون فى جمع الغنائم والزكوات لبيت المال ، « فيعزم على كل واحد من الإخوان ألّا يوخر عن بيت المال درهما ولا دينارا ، وتكون راحة جميع الإخوان والأصحاب كبيرا وصغيرا من بيت المال . وليفرح الإخوان لخدمة الدين وراحة المسلمين . لا يخدم أحد لنفسه ولا لجماعته وعشيرته ، فكل مؤمن بالله ورسوله ومهديه ، معاونٌ لى على هذا الدين يكون على راحة المسلمين . ولتكن الراحة من بيت المال لجميع الأنصار ، وليُبين من كان له عيال وأهل من كثير وقليل ، ومن ليس له إلا القليل فالكلُّ يُقَنَّنُ له من بيت المال ما يكفيه » .

* * *

مضت الشهور درا كا تحدو بعضها بعضا فى ركب الزمن بعد سقوط الخرطوم ، وما أقرب ثُقلة الأيام من ربيع الآخر إلى رمضان[١] . فاذا ما أقبل هذا الشهر اعتكف المهدى ، وساوره الحنين إلى ليالى الغار فى جزيرة أبا ، متهجدا متبتلا ، فلا يزال شوق الطُّيوف والأنوار والهواتف ينتابه رغم المشاغل الكثيرة والمهام . فلما كانت آخر جمعة فى شعبان دَلَف المهدى إلى الجامع وئيدا مُتَزَمِّلا ، ليس به من إشراقه القديم سوى ابتسامته التى لا تفارق شفتيه ، وفى نفسه ما فيها من ألم ممضّ على ذووى قرابته الأشراف . تُرى اذلك آخر عهده بالجامع والصلاة والأحباب والإخوان ؟ أقرب أفول ذلك النجم ، وخفوت ذلك الصوت ، بعد أن ملأ بصر الدنيا رسمها تألّقاً وحديثا ؟ إنه الموت يدبّ إليه متلصصا بين أنصاره ليستأثر به دونهم ، ولو علموا غيب الأيام ، لافتدته الملايين بالمهج والأرواح .

خطب المهدى فحدّث سامعيه حديثاً طليًا بليغاً ، فلما همّ وهموا بالصلاة أشار إليهم فجلسوا ، ثم نادى بصوت ينفر الغضب من نبراته : « أيها الناس ! إنى مللت من النصح والمذاكرة لأقاربى الأشراف ، الذين تمادوا فى الطيش والغواية وظنوا أن المهدية لهم وحدهم . ثم أمسك رداءه ونفضه ثلاث مرات

---

(١) سقطت الخرطوم فى يوم الاثنين ٩ ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ — ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ، وتوفى المهدى فى يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ — ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ م

وقال : إنى برئ منهم ، فكونوا أنتم شهوداً علىّ بين يدى الله » وخيّم سكون عميق . . . . .

أُكشف للمهدى عن اقتراب يومه المحتوم ، فأراد بموقفه من عشيرته أن يضع الأمور فى نصابها ؟ وأن يطفئ نار الفتنة بعده حتى لا ينفلت الزمام وتجنّح الفوضى على البلاد ؟ إن أحباب المهدى ليذكرون منشوره الذى أصدره فى الأُبيّض عقب سقوطها ، ومنشورات المهدى القانون النافذ والدستور المتبع فأشار فيه « اعلاماً منه الى كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه بأن الخليفة عبد الله خليفة الصديق ، المُقلد بقلائد الصدق والتصديق ، فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية . . . . وهو منى وأنا منه » . انها النذير والعرفان بالولاء لصفيّه الحميم ، الذى شاطره الجهاد وسايره منذ أول وهلة ، وصدق به قبل أن يصدق به أى إنسان ، فلا ولىّ بعده ولا خليفة للمهدى بعد موته سواه .

ومشت الحمى بعد أيام قلائل الى المهدى تسرى فى جسده ، وتطاير النبأ فجُنّ جنون الناس ، وتهامسوا والفزع يملأ قلوبهم عن ذلك المرض المفاجئ ، فزعاً يُغالب فيه المرء تشاؤم ما قد يُتوقع بظهر الغيب تصوراً ووهما . وارتقبوا يوم الجمعة فلعلّ الحمى تخف قليلاً ، ولعل المريض يصلى بهم ، ولعلّ صوته وعظاته ونبراته تبدد عنهم الهواجس والأوهام . ولكن الخليفة عبد الله

هو الذى أقبل يوم الجمعة ليؤم المصلين ، وانه ليطلب منهم الضراعة الى الله بشفاء المهدى الحبيب .

واشتدَّت الحمى والمريض المُسَجّى يغالبها ويدافعها عنه ، ولكن مَن ذا يغالب « التيفوس » ؟ والأحباب المتزاحمون حول داره البسيطة لا يكادون يدركون من هول الفزع حقيقة الحياة ، من شدة خوفهم ووجلهم عليه . أيموت فى تقديرهم من لم يسلخ فى الوجود أكثر من اثنتين وأربعين سنة ؟ انها لا شىء فى متوسط الأعمار والعرف المألوف ، ولكنه الأجل المحتوم . فالأنوار التى تسطع بشدة وتوَهّج وبريق ، تخبو دائما قبل الأوان .

ان الأحباب المتزاحمون حول داره يلفحهم قيظ الهاجرة ، ويضويهم ظمأ الصيف فى رمضان ، ليعلمون أن الفاجعة فى أمامهم المنتظر كفواجع الطبيعة المفاجئة ، تندفع بغتة عظيمة مَهولة تدمر كل شىء فتجعله أثراً بعد عين .

ويَضْحَى يوم الاثنين ، فتعاود المريض المسجّى يقظة وانتباه ، فيدير عينيه فيمن حوله من خلفائه الثلاث وعشيرته الأدنين ، ويصافحهم بتلك الابتسامة ، ويلقى عليهم كلمات قليلة بصوت عجزت التيفوس من تغيير نبراته ، ويعيّن الخليفة عبد الله التعايشى على الأمر بعده ، « فهو منى وأنا منه » . ثم

تشهد ، ثم بسط يديه ، ثم مدّ رجليه ، ثم أغمض عينيه ، ثم مضى مُضِيّ الأرواح فى عالم الأرواح .

* * *

تلك سيرة المهدى إيجازاً واقتضاباً ، فأى أثر لتلك الحركة بل تلك الثورة التى عرفها جنوب النيل ؟

لم تكن حركة المهدى كما يتوهم البعض ، أو كما يريدون أن يتوهموها ، حركة استقلالية أراد بها المهدى استقلال السودان وفصله عن مصر ، بل كانت حركة دينية بحتة من أولها الى آخر . وكان المهدى صاحب دعوة إصلاحية ورسالة دينية ، ولم يكن رجل دنيا ، أو طالب ملك ، أو سلطنة ، أو جاه . وقد نوّه بهذا الرأى وأكّده غير مرة فى كثير من رسائله ومواقفه .

١ — فهو المهدى ، « والمهدية أرادها الله لى » ويرد على رءوف باشا حاكم السودان العام « بأن دعائى الخلق الى تقويم السنة ، والإعلام بأنى المهدى المنتظر ، أمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم »

٢ — ا ـ رده على غوردون حينما عينه سلطاناً على السودان الغربى ، فذكر له المهدى « ألا فاعلم أننى قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم . . . . وقد كتبت الى الحكمدار فى

الخرطوم وأنا فى جزيرة أبا بدعايته الى الحق ، و بأن مهديتى من الله ورسوله »

ب ـ « واعلم أنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله ، فلا حاجة لى بالسلطنة ، ولا بملك كردفان ، ولا غيرها ، ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها »

٣ — ا ـ كتابه الى خديو مصر الذى أشار فيه الى « ما طوّقه الله به من الخلافة الكبرى ـ المهدية »

ب ـ ثم أفهم الخديو فيه « وليكن فى علمك أن أمرنا هذا دينى محض مبنى على هدى من الله ونور من رسوله ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية و باطنة ، وما قصدنا فيه إلا إحياء الدين ، واظهار آثار الأنبياء والمرسلين . ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ، ولا مالا »

٤ — كتبه الأخرى الى أهل الشام ومراكش وفاس والسنوسى ، أكّد فيها أن حركته دينية بحتة ، وأنه مهدى الله ، وأنه لا يريد ملكا ولا جاهاً ، ولا مالا .

٥ — توليته الأمر بعده الى خليفته عبد الله التعايشى ، أشد أتباعه وأحبابه تشيعاً له ونُصرة لمبادئه ، وأسرعهم بتصديقه ، وعدم

تخليفه أحداً من بنيه وعشيرته . بل إنه تبرأ منهم وأعرض عن فعلهم .

٦ — ارسال الخليفة بعده الرسائل الى الملوك والبلاد العربية وغيرها لدعوة المهدى وتحقيقاً لرسالته الدينية التى لا يريد من ورائها ملكا ، أو جاهاً ، أو مالاً .

٧ — ان المهدى كان اماماً إسلامياً عظيما ، وانه فتح باب تجديد واجتهاد و إصلاح ، كان ولا يزال مقفلا على كثير من قادة المسلمين . فامتاز فى هذا المضمار ، بالاجتهاد والجرأة فى سبيل الله و الحق

٨ — وكانت لتلك الثورة نتائج أخرى اجتماعية ، بعيدة الأثر لا تزال تطبع البلاد بطابعها ، ولا تزال معالمها ظاهرة للعيان فى أدب السلوك العام .

٩ — كانت حركته مقدمة للأحداث التى انتهت باتفاقية سنة ١٨٩٩ ، ومعاهدة سنة ١٩٣٦ . وما لا يدريه بعد ذلك غير الله . فضمير الغيب سر محجّب مكتوم .

ان انصراف المهدى عن الدنيا وجاه الحياة وشهوة السلطان ، أبرز مظهر لحركته الاسلامية الدينية العظيمة ، التى استعد لها منذ نعومة صباه ، فخرج عن الطوق متعلماً متأمّلا ، وشبّ زاهداً متبتّلا ، وعاش مجاهداً مجتهداً ،

وأعرض عما يُصبى النفوس ويلهيها عن مثلها العليا . فما حققه وما عاش من أجله ، ليظل نذير شؤم لكل من يحيد من ذويه أو من أحبابه ، عن المثل التى رسمها ، والدعوة التى نادى بها ، والمبادئ التى جاهد من أجلها . والويل للمارقين من هؤلاء عن تلك التعاليم ، من لعنة الأرواح الطاهرة .

***

وتتراكض الشهور والسنوات متسابقة ، وفوق قبر المهدى وفى المكان الذى قُبض فيه ، تقوم قبة سَامِقة الى عنان السماء يزاورها أحبابه تبركاً وترحماً وولاء . وندنو جيوش استرجاع السودان شيئاً فشيئاً من أم درمان ، ويخرج خليفة المهدى للمعركة الفاصلة مع الجيش القادم فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، ويستبسل أحباب المهدى وأنصاره ، استبسالهم فى أيام الجهاد الأولى . والتحمت يومذاك أسلحة غير متكافئة ، رجحت فيها كفة النظام والفن والعتاد الحديث ، على النجدة والشجاعة والإقدام . وانهمر الرصاص ، ودوت المدافع فى « كركرى » فى ذلك الفضاء الذى لعب فيه المهدى طفلاً غريراً ، واقتحم أحبابه سياج النيران الطاحنة ، مستشهدين مرددين : الله أكبر ! الله أكبر ! وانطلقت قنبلة من البواخر النيلية الحربية أصابت قبة المهدى وتابعتها غيرها وغيرها ، فسجدت القبة الشامخة وتقوضت أركان الأثر المشيد .

وأمر السير هيربرت كتشنر (لورد) قائد حملة النيل بعد أسابيع من

احتلال عاصمة المهدى ، فهدمت بقايا القبة إلا حيطانها القائمة . ونُبش القبر ، فوجدت جثة المهدى ، سالمة المعالم ، كاملة الأعضاء ، لم تشوّها يد البلى ، كأنما حنّطتها يد صَنَاع ماهر من قدماء المصريين . ثم نقلت بعد أن فصل الرأس عن الجسد .

وقال قائل « إن الجثة دفنت مرة أخرى فى ثرى السودان على كثب من وادى خلفا » . وقال قائل آخر « إن الرأس احتفظ به فى أحد المعاهد الطبية فى انجلترا » . وذكر غيرهما غير ما ذكرا .

« أرأس برأس ؟ إن رأس غوردون حمل إلى المهدى فوق سنان رمح . أفيحمل رأس المهدى إلى موطن غوردون ؟ » إنها مُثْلة أتارت سخر برناردشو اللاذع فى روايته « قيصر وكليوبطره » ، وغيره من الكتاب الانجليز الأحرار . ولم يُزْرِ بذلك القبر أنه خال من دفينه ، ففى حنايا تاريخ السودان له قبر غير منبوش .

ثبت المراجع

١ — تاريخ السودان — لنعوم شقير .
٢ — السودان المصرى والانجليز — مجموعة رسائل لأحد أدباء مصر .
٣ — الجزء الثالث من مذكرات عرابى باشا (مخطوط) .
٤ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال : ١٨٨٢ — ١٨٩٢ — لعبد الرحمن الرافعى بك .
٥ — الإشارات — لابن سينا .
٦ — المنقذ من الضلال — للغزالى .
٧ — محمد عبده — للدكتور عثمان أمين .
٨ — دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدى .
٩ — راتب المهدى ، و بعض منشوراته .

1 — Winston Churchill : The River War.
2 — Rudolf Slatin : Fire and Sword in The Sudan.
3 — Sir, R. Wingate : Mahadism in The Sudan.
4 — Richard Hermann : The Mahadi of Allah.
5 — J. Ohrwalder : Ten Years of Captivity in The Mahdi's Camp.
6 — Sir auckland Colvin : The Making of Modern Egypt.
7 — Sir Alfred Milner : Enqland in Egypt.
8 — D.C. Boulger : Life of General Gordon.
9 — I vtton Strachey : The Eminent Victorians.
10 — Lord Cromer : Modern Egypt.

20 NOV 1990

132340 18
B 11923088

20 NOV 1990

DT
156.6
B25
1944